تقويم أسنان فضي

رواية

هاني السالمي

فبراير 2022

[A]

دائماً كنت أجلس على المقعد بالقرب من الشباك، تحتاج وقتاً لتسرح بنظرك خارج زحمة الصف الدراسي، أو تكون مهياً حين يأتي (الخيال).

هذه الفترة كانت تحوم بالأفكار الإيجابية، مثلاً أن أحرز هدفاً في مرمى فريق الصف الثالث الإعدادي، لأنهم اختاروا حارس مرمي مكتنزاً وطويلاً كان أطول التلاميذ في المدرسة، كل عائلة هذا الحارس تمتاز بالطول الفارع والبشرة السوداء وخشونة الصوت، على حسب قصصه عن عائلته، أن جدّه حين كان جندياً في الجيش التركي لم يجدوا حذاء (بوستار جيش) على مقاس قدمه الطويلة، وكان يلقب أبو قدم مثل الكريك، (الدفاش) حتى صارت لقب عائلتهم (أبو كريك).

وقتها كان يضع قاع الحذاء تحت كف قدمه ويربطه بحبل عريض، جدّه استطاع أن يحمل الضابط التركي بأذنيه ويرفعه حوالي متر عن الأرض.

وحين تتخيل طوله تجده يفوق المترين والنصف، وأيضا كم رغيفاً يأكل في الوجبة الواحدة؟!.

يأخذك شرود الذهن إلى مكان أجمل مما أنت فيه الآن، بعيداً عن جدران الصف المطلية باللون الأبيض الخشن، لكن الرطوبة أكلت نصف طلاء الجدران فتظهر كلوحات سريالية من عصر الكنيسة القديمة.

من فعل الرطوبة ترى على الجدران وجه صلاح الدين الأيوبي بالخوذة على رأسه، أشكال تدل على سيوف معركة بدر، ووجه مريم العذراء، وبعض الجدران تعكس شكل فتيات عاريات لكن هذه الأشكال لم ينتبه لها إلا تامر الأبيض، لا نعلم من أين يأتي بهذا التأمل وأن كل خط أو شكل يفسره إلى تفاسير شكل النساء، لكنه يبقى متحفظاً بالوصف إلا على المجموعة المغلقة من أصدقاء الصف، كنا نطرب لوصفه بل ندخل في عالم لا يشبه حياتنا التي لا تعرف بها إلا أمك وأختك أو خالتك وعمتك..

الشقوق في الجدران كخرائط الأنهار في العالم، يظهر نهر النيل ونهر الأمازون، وتجد غزال يركض وخلفه نمر مرقط.

كان يدرس معنا في الصف، وحيد صافي يده تلف بالحرير، كل شيء يحوله إلى لوحة فنية، كان يدخل الصف قبل المعلم، وأي خط أو (خربوشة) موجودة على اللوح الأسود يحولها إلى وجه من الوجوه التي تعيش معنا.

كنا نندهش لقدرته على الرسم، كان دائماً يرافق مدحت صبري الذي يكتب القصص القصيرة والشعر والمقالات للمناسبات الدينية ويلقيها على إذاعة المدرسة (إذاعة المدرسة كانت عبارة عن ميكروفون يدوي، يقف صاحب الكلمة الصباحية في المناسبات على منصة تعلو متراً عن أرضية المدرسة مرصوفة بالأسمنت).

مدحت يكتب القصص وصافي يرسم مناظر للقصص، ويقلدا قصص الرجل المستحيل (لنبيل فاروق)، وكان أغلب التلاميذ يذهبون على مكتبة والد مدحت، فهي أول مكتبة تملك آلة تصوير في المدينة، وكان يوجد رف طويل عليه مئات القصص، أغلبها لكُتاب مصريين، منها سلسلة الزهور، وسلسلة زووم وسلسلة الرجل المستحيل، فكانوا يستبدلون القصص المقروءة بقصص جديدة من المكتبة مقابل (نصف شيكل) كان النصف شيكل المصروف اليومي للطبقة المتوسطة في المدينة.

كل من في الصف الدراسي، يشاركونك التخيل، وقتها يكون نظرهم معلقاً بعيداً إلى جهة عمود الدخان الأسود المتصاعد من إشعال إطارات السيارات عند مفترق البحر [يبعد عن شاطئ البحر مئتي متر، يفصله عن ماء البحر كثبان رميلة، يعيش عليه بعض الرحالة البدو، يمتلكون مئات من الخراف والماعز والإبل، كانت نساؤهم ترعي الأنعام، في هذه المنطقة التي تحتوي على العشب الأخضر، ومرةً اتفق الشباب أن يسرقوا ماعزاً صغيراً منهن، فأقدم أحدهم ليحكي مع إحدى النساء (الراعيات) ليشتت تركيزها عن الخراف والماعز، فسرق الشاب الأخر واحداً وذبحه في مكان مخفي]

الكل ينتظر أن تنتهي الحصة بل أغلب التلاميذ يهربون منها وكان الهروب برعاية المعلمين، ليلحقوا بالمشاركة في رمي الحجارة على الجنود..

الوقت المعتمد لهذه التجربة [الجنود والحجارة] قبيل صلاة الظهر، حتى يتمكن الطلاب من العودة إلى بيوتهم قبل أن يمسكهم أباؤهم وينكشف أمر هروبهم.

تكون معركة ضارية لا توصف ولا يمكنك تصديق ما يحدث بها إلا بمصور محترف يلتقط كل ما يدو فيها بين الجنود وملقي الحجارة.

وخاصة زميلنا بيوض كان شجاعاً بل مجنوناً، لا يهدأ باله إلا أن يركب على مقدمة سيارة (الجيب) العسكرية ويرقص عليها.

[يوجد ثلاثة أنواع لمركبات الجنود، الأول جيب القيادة صغير الحجم كنا نلقبه (جيب الصرصور) عليه سلك معدني طويل لاستقبال وإرسال الإشارات والتحركات، يمكنه أن يدخل كل الشوارع الضيقة ليلاحق الشباب، يجلس به قائد من الجيش بالقرب من السائق والقائد معه مسدس غريب، لديه مهارات القنص بالمسدس، كان حين يطلق الرصاصة على أي شخص يضعها في رأسه، وقد قتل العديد من الشباب والأطفال بالقنص من مرة واحدة، والمركبة الثانية حاملة الجنود كنا نطلق عليها اسم (الثلاجة أو البوكسة) تحمل عشرات الجنود، وحين يمسك الجنود أي شاب أو طفل شارك في رمي الحجارة كانوا يضعونه داخلها، هذه المركبة مصنوعة من حديد قوي كنا نقذف عليها عشرات الحجارة لا تخدش طلاءها، أو تتأثر،

كانت بطيئة بالحركة، حين كان الجنود يعتلون الأماكن المرتفعة في المدينة كانت تحضر لهم الطعام والشراب، يمكنها أن تتحمل كل الزجاجات الحارقة التي تنفجر فوقها دون أن تحترق، أما المركبة الثالثة هي الدبابة كنا نطلق عليها (الجنزير) مخيفة كبيرة ضخمة لا تدخل مكان حتى تدمره، وكانت تستخدم قليلاً لكن في أوقات تكون مهمة في المعارك]

كانت قلوبنا تقفز رعباً من هذا المشهد (مشهد بيوض)، لكن كان الجنود يتعاملون معنا على أننا مجرد تلاميذ صغار، فلا يستخدمون سوى العيارات المطاطية وقنابل الغاز الجلدية السوداء.

وفي هذه اللحظات يظهر زميلنا نشأت الوادي الذي كان ماهراً في صناعة المقلاع، بكل سهولة يصنع العشرات منها ويوزعها على المشاركين، ويعلمنا كيف نستخدمها، [أنواع من المقاليع كان يجيد صناعتها الوادي، منها مقلاع الحجر يربط حجراً في طرف خيط قوي، ونحرك الخيط بالحجر في الهواء دائري ممسوك باليد ومن ثم نطلق الخيط باتجاه الجنود، والنوع الثاني، الصعب جدا، قطعة قماش يضع في المنتصف حجراً ويطلق الحجر مع

الاحتفاظ بقطعة القماش في يدك، والنوع الثالث هي الشديدة (النبلة) نأتي بفرع شجرة على شكل إشارة النصر مربوط بها مطاط (مغيط) نضع حصى صغيرة ونشده ومن ثم نطلقها كأنها بندقية قنص يدوية].

لكن لا أحد مثله (الوادي) في استخدامه حيث كان يقدر أن يسقط حجر المقلاع على رأس الجندي الذي يطلق قنابل الغاز، فيشتاط الجنود غضباً علينا، وقتها تنفذ ذخيرتهم وقنابلهم ومن ثم ينسحبون.

يبدو أن الجنود أيضا يعرفون وقت نهاية هذه الجولة قبل صلاة الظهر، فينسحبوا من المفترق، إلى جهة البحر (مركز الجيش).

وتعيس الحظ منا من يراه أبوه في هذه الجولة (يشارك في رمي الحجارة) ينهال عليه بالضرب، لأنه معذور، لأن الحاكم العسكري كان يسحب تصاريح عمل الآباء في الأراضي المحتلة لأي مخالفة من الأولاد.

لكن كل الطلاب يفقدون متعة السرحان (التخيل) في حصة مدرس الرياضيات هشام حرب، كان جباراً بعيون حمراء وله شنب عريض، يرتدي قمصاناً بياقة عريضة وبنطال مزموم من الأعلى وواسع من ناحية القدمين،

غزيز شعر الرأس، له سالف عريض، أسنانه بنية اللون من أثر التدخين، ويستخدم عصا خشبية من شجر اللوز الذي لا ينكسر لعقاب غير المنتبه، والمتكاسل في حل مسائل الرياضيات (الواجب اليومي)، يكره كلمة نسيت أن أحل الواجب يا أستاذ، ولا تمرّ حصة الرياضيات وإلا أن تنال لو ضربة من العصا، هذا لو كنت محظوظاً.

فصرنا نحفظ المعادلات عن ظهر قلب وحرف (السين) و(الصاد) كأننا نحفظ أسماءنا، وتعيس الحظ معه حين يسأله عن نتائج جدول الضرب وخاصة جدول ضرب رقم تسعة، الذي كان صعب أن تحفظه (ثقيل الدم)، دون سابق إنذار يوجه العصا في وجهك ويسأل أي سؤال: يا الله وقتها تفقد اللغة والكلام والجواب، لا ترد سوى التأتأة والمخاط الذي يسيل من أنفك ويختلط بدموع عينيك، لكن لا يشفع لك هذا الخوف، فتنهال العصي عليك، طبعاً الذي يجلس بجوارك في المقعد الخشبي يكون قد بال على نفسه.

وقبل أن تنتهى الحصة يتوعدنا في الحصة القادمة، ومن أجمل القصص تحدث في هذه الحصة زميلنا رائد حسين الذي يصير وجهه أصفراً ويفقد الكلام، ولا يعود الدم له

إلا أن يغادر المدرس الفصل، وفي يوم لم يحل رائد الواجب، فجلب والده معه إلى حصة الرياضيات، ليشفع له من العقاب، لكن هشام حرب عاقب والد رائد ورائد نفسه، والمضحك أن والده صار يركض في ساحة المدرسة، كلنا ضحكنا على المشهد، لكن حين التفت ناحيتنا المدرس، صرنا تماثيل من شمع!.

وأيضا يمنعك من السرحان والتخيل والخروج من جدران الفصل، زميلنا رامي عبدو يجيد التمثيل والغناء بشكل ساخر ويقلد الأصوات ولم يترك رئيس عربي ولا شخصية فنية وإلا قلدها بشكل مضحك، كنا نقهقه حتى نفقد السيطرة على أنفسنا من كثرة الضحك، وكان يشاركه خالد صقر في المشهد وكان سريع في تغير شكله إلى رجل عجوز أو سيدة حامل، أو دكتور، وكانا يقدما لنا عرضاً مسرحياً لا يتجاوز الأربع دقائق في الوقت ما بين الحصص، ويرقصان بشكل مضحك ويصير الجميع يصفق لهما.

رغم أننا لا نملك مستقبلاً في التعليم لأن الجميع كانوا فقراء وأغلب آبائنا يعملون في إسرائيل، [عمال في الأراضي المحتلة، يخرجون من الساعة الثانية ليلاً للعمل

ويعودون الساعة السادسة مساءً، ولا يوجد سوى الجمعة والسبت عطلة الأسبوع، يوم للمسلمين ويوم لليهود] والقليل جداً كانوا موظفين برواتب قليلة لا تكفي خبزاً ولا ملابس للعائلة، حيث كان بعض الرجال يحصلون على وظيفة مدرس حين ينهي تعليم الإعدادية لقلة حملة الشهادات الجامعية.

كانت هناك فقط جامعة وطنية تتعلم بها تخصصات لتصير مدرساً، كان بعض عمال إسرائيل يحصلون على يوميات (أجرة العمل اليومي) كبيرة، وفي عمل يوم واحد مقابل راتب موظف حكومي، حينها نشط إرسال الطلاب ليتعلموا الطب في دولة روسيا واليونان، فكانت رخيصة جدا في ذلك الوقت.

كان أغلب الرجال ينتظرون أن يستصدر أولادهم البطاقة الوطنية (الهوية) ليحصلوا على تصاريح للعمل داخل إسرائيل، وخاص الولد البكر الذي لا يحلم بإكمال تعليمه ليساعد أباه في تكاليف المعيشة للعائلة التي يتجاوز عددها العشرة.

ومنهم كان ينتظر الولد حتى يبلغ السادسة عشر حتى يزوجه كي لا تقطع عنه المساعدات الغذائية والمالية من (الشؤون الاجتماعية) هذا قانون لا يمكن أن تتجاوزه.

رغم كل هذا كنا نذهب إلى المدرسة فقط للمغامرات اليومية أو القتال (الطوشة) بين عائلات المدينة، فكل يوم (طوشة) على الأقل تبدأ من أقل الأشياء وتنتهي بشكوى عند ناظر المدرسة الطويل الأصلع الذي لا يستخدم العصى ولا الخرطوم في العقاب فقط يستخدم كف يده خشن الجلد ليصفعك على وجهك فتفقد الوعي والسمع لساعات ويترك احمراراً على وجهك ولو وضعت كل الماء البارد لن يهدأ تورم وجهك.

كنا نتسابق قبل أن يدق جرس البداية لنقف عند مدخل مدرسة البنات لنراقب سوزان فرج بنت الحكيمة (الممرضة) المشهورة عندنا التي تعمل في المركز الطبي الحكومي في قسم الغيارات والحقن، كانت يدها ثقيلة، حين كنا نذهب لنتعالج من السعال والالتهابات يكتب لنا الدكتور حقن البنسلين، (تبكي بحرقة) حين تغرزها في قفاك من الوجع وتصرخ بأعلى صوت، سوزان كانت سمراء، زيها المدرسي قصير وضيق وشعرها ناعم أسود،

ودائمة الابتسامة، يا الله لو ابتسمت بوجهك كأنك دخلت الموسوعة الفلكية للمشاهير، وتكون منتشياً وسعيداً طوال اليوم ولا تخاف حتى من مدرس الرياضيات فأنت حصلت على شحنات التخيل الكوني لتصل للسماء السابعة.

لا نعلم سرّ جمال سوزان ورفيقاتها هديل نوح، رقية بدر، حنان راغب، نجوى رستم، حين يمشين في الشارع المؤدي لمدرستهن، تشعر أنك تشاهد حقلاً من الورد يسير بكل كبرياء وأناقة، كان من أهم أحلامنا حين نكبر أن نتزوج إحداهن.

لكن أحلامنا هذه مؤقتة، أقل من سنوات وترى جمعيهن أمهات صغيرات، وقد تشاهدن في المركز الصحي يحملن مولودهن البكر، وأنت ما زلت تحمل حقيبة المدرسة، هكذا نهاية معظم الجميلات في المدينة.

وفي يوم أقدم خالي على الزواج، وجدتي (من ناحية أمي) اختارت له بنت أختها التي لم تتجاوز الثالثة عشرة، صغيرة الحجم، بيضاء، ذات عيون واسعة سوداء، وقد حصلوا على إذن زواج من المختار (ورقة تسنين) وهذه الورقة تأخذ من الكبار والمخاتير، يكون مكتوب فيها بأن هذه الفتاة بالغة قادرة على الزواج، خالي أيضا صغير ولا

يتجاوز السادسة عشر من العمر، أذكر في يوم الزفاف وكنت أحد المتفرجين تكاد المدينة ومن فيها ينشغلون بإجراءات يوم الزفاف، نظراً لتعدد هذه الإجراءات وتشعبها.

ففي الصباح تبدأ عملية إعداد وليمة العرس بذبح الخراف وإعداد اللحم وطبخ الطعام، وقبل الظهر يقوم الشبان بمساعدة العريس على الاستحمام والباسه ثيابه الجديدة المزينة بالورد ورشه بالعطور. وعند خروج العريس من مكان الاستحمام يستقبله جمهور الشبان الذين ينتظرون تلك اللحظة في الخارج هازجين. ثم يتحرك موكب العريس إلى حيث يحتشد أهالي القرية في الديوان وهم يغنون. وعند الظهر تقام على شرف العريس مأدبة لجميع الجيران والضيوف، وتقام حلقة الدبكة، ويغني شاعر شعبي أغانٍ وطلعات متواصلة حتى العصر، حتى يحين موعد زفة العريس إلى عروسه.

في هذه الأثناء تكون زفة العروس قد "طلعت" من بيت والدها إلى بيت عريسها ضمن إجراءات واحتجاجات أحياناً، يذهب خال العروس ووالدها إلى حيث تكون مصمودة على "لوج" مرتفع في بيت والدها، وينزلانها

مقدمين إليها الهدايا، ويقدم أهل العريس هدية لكل من يحتج على صفقة الزواج، وفي الماضي كان أهل العريس مضطرين لتقديم هدايا وأموال للشبان، تحت اسم "شاة الشباب" وللخال تحت اسم "هدم الخال"، وتتيح التقاليد لأبن العم أن يعترض على زواج ابنة عمه من أي شخص كان، عملاً بالقول المأثور: "ابن العم ينزل العروس عن الفرس"، أي أنه يستطيع إلغاء الزواج والمطالبة بالعروس حليلة له، حتى لو كانت راكبة الفرس في طريقها إلى زوجها.

ويزف العريس إلى عروسه في موكب هازج حاشد يخترق الشوارع، ويكون العريس قد امتطى صهوة جواد أصيل، وحمل في يده مظلة مزخرفة بالمناديل الناعمة والذهب والورد. ويتقدم الحداء الشعبي والرجال الموكب، فيما تحف الجواد قريبات العروس وصديقاتها، وتكون إحدى النساء تحمل بيدها عجين وورد، وتعطيها للعروس لتلصقها على حافة باب البيت.

وتقضي التقاليد بأن يسارع العريس فيكشف عن وجه عروسه، ويقدم لها الهدايا، ثم يخرج إلى حيث يسهر

الرجال، لتستأنف من جديد جولة أخرى من الرقص والغناء.

خالي سكن في غرفة صغيرة في بيت العائلة، وصاروا يضعون الطعام والشراب له على باب الغرفة لمدة ثلاثة أيام، لكن بعدها خرج خالي في اليوم الرابع للعمل لأن شهر العسل عندنا لا يتعدى ذلك.

[B]

كنا نُحب الذهاب إلى المدرسة لنهرب من خدمات البيت التي لا تنتهي، من جلب الماء الحلو [العذب] من خزانات المشفى الحكومي، كان المبني الوحيد في المدينة الذي لديه الماء الحلو، ويأتي عبر خطوط وخراطيم ممدودة من المستوطنة (الإسرائيلية) غرب المدينة.

[كان يضخ إلى بيوتنا الماء المالح نسبياً، عبر أنابيب حديدية في الأرض متصلة بحنفية، (ماء البلدية) معظم الوقت مقطوعة، فقط عليك سماع شخير الحنفية لمدة ساعة أو ساعتين لتحضر الماء، لا نستفيد منها إلا للاستحمام وغسيل الملابس بعد تسخينها].

[تحيط بمدينتنا الكثير من الثكنات العسكرية، وخاصة نقطة التفتيش التي تفصل شاطئ البحر عن بيوتنا، فحين تنوي الذهاب إلى البحر عليك المرور بنقطة التفتيش، وعليك أن تحمل البطاقة التعريفية (الهوية)، أو تسلك طريق التفافي طويل جدا خلف التفتيش، لكن كشف أمر هذا الطريق وصار خطراً، بعد أن جهز أحد الشباب متفجرات على حمار أبيض ودخل في الجنود، اللطيف

في الأمر أن بعض الجنود أصيبوا، والحمار لم يصب بأي شيء ومازال يعمل في السوق، وثمنه غالٍ، وصار يلقب (بالحمار أبو سبع أرواح).

فكنا نحمل الزجاجات والدلاء ونملؤها بالماء، ونقطع مسافة كيلو متر حتى نموت من التعب، تشعر بأن يديك تخرج من جسدك من ثقل الحمل وأناملك (أصابعك) تصبح حمراء ومتورمة، كان عليك أن تكرر هذا العمل مرتين.

والأصعب أن تساعد أباك في نقل البضائع من السوق إلى البيت لو كان يعمل بائعاً هناك، تجر عربة السوق المصنوعة من الحديد ولها عجلات (إطارات) رفيعة دائما لا تعمل تروسها، فتدفعها كيلو متر ذهاباً وإياباً، يتركك أبوك على عربة السوق لتبيع بدلاً منه، فعليك أن تملك مهارات اليقظة من السرقة وأيضا تكون شاطراً في الحساب لعد النقود، ومن سوء حظك لو أخطأت في تحصيل ثمن البضاعة أو يسرق شيء، يكون عقابك وخيماً.

أو يعطف قلبك على أمك في بعض الأعمال الخاصة بالنساء، منها تكسير حبات اللوز الناشف، حتى يأتي

تاجر المكسرات ويشتريه قلب (اللب) اللوز بشواكل، تظلّ ساعات وأنت تحمل بيدك حصوة كبيرة (زلاطة) وتضرب اللوزة حتى تخرج ما بداخلها ومن ثم تجمع في أكياس كبيرة، تقف يدك عن الحركة من هذا العمل الشاق، وطبعا ممنوع أن تأكل أي حبة لوز رغم جوعك.

طبعا أنت والعائلة لابد أن تعمل في مهنة (المَزّ) في البيت، يجلب الآباء أكياس طويلة وكبيرة مليئة بقطع قماش وصوف مخلفات المصانع، وعليك تحويل هذه القطع إلى خيوط ولفها، يا الله كم كانت هذه المهنة مملة، حيث تصاب بالسعال من الغبار الذي يخرج من قطع القماش، والوقت الطويل الذي تستهلكه لتنهي حصتك من المزّ (مّز الصوف).

وأشهر سيدتين كانتا تتضمنان هذا العمل عندنا، سعدة وحمدة، وهما زوجتين لرجل أعور كان يدخن كثيراً ولا يهتم بالأولاد، وحمدة هي الزوجة الثانية التي تزوجها بعد موت أخيه الذي كان يعمل سائقاً في دول الخليج، وحين كنا نرى الأكياس أمام بيتهم نهرب من البيوت، وإلا سوف تعمل ليلاً نهاراً.

لو لاحظ أبوك أنك لا تذهب للمدرسة لا يغضب بل يكون سعيداً، على وجه السرعة تصنع لك أمك وعاء كبيراً من الترمس الحلو وتأمرك أن تلف في كل الشوارع لتبيعه، تحمله على رأسك وتلف وتنادي (الترمس المالح).. كنا نهرب من البيوت إلى المدارس..

هناك أوقات لا يوجد عمل ولا يوجد طلبات مزعجة دون مقابل أو أجر، فقط أجرك أنك لابد أن تساعد عائلتك، كنا وقتها نتفق مع جيراننا أن نذهب إلى منطقة (جميزات صبري) نعتبرها المنتزه الوحيد لنا، مساحة خضراء حولها كثبان رميلة صفراء وفي المنتصف أشجار الجميز المثمرة، لرجل يطلق عليه صبري، فهو مدفون تحت الشجرات، يقال إنه قُتل من جندي إنجليزي أيام (الانتداب البريطاني)، وزرعت الجميزات أم صبري تخليداً لروحه، [زراعة الجميز سهلة جداً عليك أن تحضر غضن من الشجرة، وتغرسه في الأرض مع القليل من الماء].

كنا نقطع مسافات طويلة لنصل إلى هناك، وعليك أن تكون قويا وشجاعا وقادرا على قتال الكلاب الضالة المتوحشة وبعض الشباب الذين يقطعون عليك الطريق بهدف السرقة، وحين تصل للمكان تنسى شقاء وخوف

الطريق، تكون في مكان خالٍ، جزء من الجنة لا تسمع إلا صوت الريح وزقزقة العصافير وضحكات الأطفال وهم يتدحرجون على الرمال، كنا نأخذ حبالا قوية ونربطها على الأغصان ونتمرجح حتى ينكسر الغصن.

أيضا كنا وفي أوقات محفورة في عقلنا، (عرض سينما) كانت وكالة الغوث تختار منطقة فارغة وتأتي بجهاز يعرض أفلام كرتون على قطعة قماش بيضاء كبيرة، كنا نملأ جيوبنا ببزر عباد الشمس المحمص، ونجلس ونشاهد ما يعرض.

بدون خبز بدون دفتر بدون زي مدرسي المهم أن تخرج من محيطك وحين يسألك الناظر: أين زيك المدرسي، تكون اجابتك سريعة: في الغسيل يا أستاذ، أو تمزق ولا يوجد مال لشراء زي آخر، نادراً ما كان يطلب منا أن نحضر دفاتر أو كتب، لأنهم كانوا يوفرون لنا كل شيء المهم تعال على المدرسة.

وحين نسلتم الكتب المدرسية الكبيرة، كنا نجلدها بورق أكياس الأسمنت القوية، ونرسم مربع محاط بدوائر أو أشكال هندسية على الغلاف بالقلم الأزرق ونكتب عليه أسماءنا ورقم الصف واسم المدرسة.

كان زميلنا من الصف المدلل بهاء فضل، معه جدول غذاء بيوت العزاء والأفراح والمناسبات في كل المدينة، لا نعلم من أين يأتي بهذه المعلومة، (عرفنا أن له جار يساعده في نقل كراسي للتأجير فيخبر بهاء عن عنوان البيت صاحب المناسبة) لأن من عادتنا تقديم وجبات غذاء من اللحم والرز الأصفر، وحده بهاء من يعرف المواعيد، فكنا لطفاء معه ليأخذنا لنتناول الغذاء كأننا من أهل العريس أو من أصدقاء الميت. وكنا نعرف من ملابس بهاء فحين يلبس حذاءه الجلدي الأسود وبنطال قماش بني وقميص رمادي، نتأكد أن اليوم ربيعيا، لكن حين يأتي (بشبشب) بلاستيكي، نعلم اليوم سوف يكون غذاؤنا فقط خبزاً وفلفل أحمر مخروط.

ونسيتُ أن أخبركم بأن جدّة بهاء أم عدنان كانت داية (قابلة) المنطقة فحين نراها تدخل المنطقة تحمل حقيبتها الطبية المملوءة بالمقصات الفضية والشاش والقطن الأبيض، وملاقط بلاستيكية، ودواء الجروح وخيوط التقطيب، نعلم أنه سوف يأتي طفلٌ جديد ينضم إلى هذا الأتون السرمدي الذي لا ينتهي من تفاصيل تشيخ ولا

تموت، كانت أيضا أم عدنان تخبر حفيدها بهاء عن المناسبات.

الرجال ماهرون جداً في الإنجاب في هذه المدينة، يشبهون حظ الصياد السعيد حين يرمي صنارته في البحر فيصطاد أسماكا كثيرة، ورجالنا مجرد أن يلقوا صنارتهم في بحر زوجاتهم كل سنة يأتون بطفل جديد ينتمي لنا ويأخذ جزءا من قصصنا.

بعد الولادة على الرجل أن يذهب لأقرب سوق ليشتري أرنباً كبيراً (هولندي) لاحم سمين، ليذبح ويطبخ ويقدم لزوجته، وعلى النساء إحضار الحلاوة الطحينة لتأكل منها، ليبدأ نزول الحليب للرضيع بغزارة.

وقبل أن يذهب الطفل للمدرسة، يتلقى دروس خصوصية منها أنه ولد في مكان مؤقت، مكان عليك الرحيل منه، يلقن كل القصص والحكايات عن ماضي أجداده أو شكل الحياة قبل الوصول إلى هذه البقعة المكتظة بالبيوت وبالوجوه وبالأصوات، كل شيء في الحياة مؤقت فإذا سارت الأمور بشكل جيد استمتع بها.. وإذا جرت على نحو سيئ فلا تجزع لها.. لأن ذلك لن يكون الى الأبد.

ثمانية شوارع توصلك إلى المدرسة، لو أردت أن ترسم خريطة وتكون المدرسة في المنتصف يظهر لك شكل الأخطبوط بأذرعه الثمانية، والمدرسة رأسه، طبعا حين استخدم وصف كلمة شارع قد أكون مبالغ بعض الشيء، لكنها تعتبر شوارع، تتفرع من مربعات سكنية تعج بالسكان والبيوت المبنية بشكل عشوائي، مع غياب قوانين البناء والممرات بين البيوت، المسافة بين البيت والبيت المقابل (مسافة) لا تمكنك من إدخال ثلاجة بحجم صغير، ومن المحزن في هذه المسافة أن يمشي شخصان بجانب بعضهما البعض، لو مات أحد، تجد صعوبة في إخراج النعش، يبدو أن مهنة الهندسة كانت غائبة أيضا في تلك اللحظات، يوجد عشرات الالتواءات والزوايا تخدم القطط والجرذان لتعيش دون إزعاج.

لا بد أن تكون لطيفاً بالعيش معنا، لا تفتح شباك على مصراعيه، إلا وقت القلي أو إشعال البخور. لو جاءت إحدى حمامات (الطير) الجيران إلى قفص الحمام الخاص بك لابد أن تعيدها، لا بد أن تغلق باب بيتك خوفاً من النظرات الخاطفة لأسرتك.

وقت الظهيرة إلى آذان العصر متروك للنساء ليأخذن كامل حريتهم بالتزاور والجلوس عند العتبات، والحوار عن الحياة الخاصة لهن، أو التحضير لطعام غد مثلا (تنقية العدس من الحصى والقش، تجفيف أوراق الملوخية، صناعة الأجبان وخاصة (الكشك).

إلى رأس الإخطبوط.. الشارع الخلفي (الأول) المؤدي للمدرسة من جهة المقبرة، يوجد مساحة كبيرة بين المدرسة والمقبرة، يوجد بها المسلخ القديم، كنا نذهب إلى هناك لنرى عدد العجول والأبقار والجمال والماعز التي تذبح في هذا اليوم، مشهد غريب، كيف يقدر الذبّاح في نصف ساعة أن يحول العجل الكبير، إلى كومة من لحم، كنا نذهب هناك أيضا لنحصل على العظم الملبس باللحم، كانت أمهاتنا تطبخه على شوربة العدس طعمه أكثر من رائع، ونظل نقضم اللحم الملتصق بالعظم، هذا الشارع في المساء يكون أكثر رعباً، وعشرات القصص تنتشر عن الغول، وعن الميت الذي يمشي بالكفن، والقبر المفتوح، والضوء الذي خرج من القبر، كان بعض الشباب يتراهنون على الجلوس في الليل بالمقبرة أطول وقت ممكن...

ثلاثة شبان لهم قصص مشهورة مع مغامرات المقبرة في الليل، إيهاب شاكر الذي كان يفتح (الفزقية)، مكان كبير يضع الموتى فيه بشكل جماعي له، كان إيهاب يمتلك قلب وشجاعة لا توصف، كان يخرج الموتى من الفزقية ويضعهم عند الباب ويهرب، وحين يرى أي شخص هذا المشهد يهرب صارخاً: الموتى طلعوا من القبور، فيركض الناس للمقبرة، ويعيدونهم إلى مدفنهم، وقتها اتفق بعض الشباب أن يحرسوا المقبرة، وفي الليل خرج عليهم إيهاب وهو يلبس اللون الأبيض، فهربوا من المكان، وبعضهم فقد النطق، وكشف إيهاب بفعلته حين أخرج ميتاً كان ثقيلاً، لم يقدر على حمل فاغلق باب المدفن عليه، وصار يصرخ حتى أخرجوه من المدفن بشكل يرثى له.

أما خضر ماجد كان عمره وقتها خمسين سنة، ومات أبوه وكان يحبه كثيراً، وكل يوم يزور القبر، من بعد صلاة العصر حتى آذان المغرب، يرش الماء ويزرع الورد والأشجار حول قبر أبيه، فغلبه النعاس ونام بالقرب من القبر، واستيقظ في نصف الليل، وصار يركض ويصرخ حتى وصل إلى بيته، ومن يومها شاب شعر رأسه وشعر ذقنه وتقوس ظهره، وكلما سأله الناس ماذا حدث معك،

ماذا رأيت، ما الذي حدث معك، كان يقول: أشياء لا توصف، أشياء مخيفة، ويصرخ..

أما ياسر علي هذا الشباب اللطيف الأنيق الذي يضع عطر دائم وحليق الذقن، انضم إلى المقاومة الشعبية، وكان من عملهم التصدي للجنود من ناحية المقبرة، لأن خلفها يوجد ثكنة عسكرية يأتي منها الجنود، فذهب يراقبهم عند المقبرة، ليرسل إشارة بحركة الجنود، لكن لم يعد ياسر لحتى الآن، رُويت قصص كثيرة عن اختفائه.

[يوم الخميس يعج المكان بالناس والزوار في (خميس الموتى) يحضر الناس معهم الكعك والحلوى والنقود، والطعام الخفيف، يوزعونه على المتسولين والفقراء، ويقرأون آيات من القرآن، ونترك المقبرة قبل أن يحل المساء والعتمة].

أما الشارع (الثاني)، شارع القسام، وهو ينتهي بالالتصاق بسور المدرسة من ناحية الشرق، الشارع طويل يقطع الطلاب عبره مسافة كبيرة للوصول للمدرسة، لكن عليهم الدوران حول المكان للوصول لباب المدرسة، لكن يعض الطلاب حفروا فتحات في السور، فصاروا يتسلقونه

ويقفزون داخل المدرسة بكل سهولة بعيد عن عناء الدوران.

تمر بهذا الشارع أماكن وشخصيات تترك أثرا داخلك ولا يمكنك أن تنسى أحداً منهم، ومنهم بائع الكاز الأبيض، يأتي إلى الحارات بمشهد مهيب، حصان أسود كبير يجر خلفه خزانا حديديا على عجلات (إطارات)، يجلس أبو شعث على كرسي ما بين ذيل الحصان ومقدمة الخزان، يحمل بيده جرس نحاسي ضخم، لا يقدر أحد على حمله إلا هو، وحين يصل إلى مقدمة الشارع، يحرك الجرس فيصدر صوتا كأصوات الكنائس في أعياد الميلاد، ينتبه الناس له، فيركضون ليشتروا الكاز الأبيض، وحين ينزل تجد أبو شعث رجلا ضخما يرتدي قميصاً قطنيا بني اللون وعلى رأسه طاقية خضراء من الصوف، يخاف منه الناس فيقفون بطابور والكل يأخذ المقدار المطلوب من الكاز [كان الناس أغلبها بدون كهرباء فكانوا يشعلون اللمبة الزجاجية، بعد صلاة المغرب حتى الصباح] وبعد أن ينتهي من البيع مجرد أن يجلس على كرسيه يتحرك حصانه الأسود إلى مكان آخر، تشعر أيضا أن حصانه

مبرمج ويعرف إلى أين يتحرك؟ أبو شعث يربط حصانه أمام بيته الموجود خلف مبني سينما ناصر.

سينما ناصر بجدرانها الطويلة وبوابتها الحمراء، وحين تدخل قاعة العرض وتجد أمامك مسرحاً لعرض الفيلم، تدب داخل قلبك قشعريرة من جمال هذا المبنى، وسمي (سينما ناصر) لأنها فتحت أبوابها في فترة حكم جمال عبد الناصر، لم تستقبل زوارها كثيراً، فقد جاء رجال الدين ومنعوا عرض الأفلام وحولوها إلى مكتبة للكتب الدينية.

[لكن مهما غيرت الأسماء وغير المنتج، بقيت سينما ناصر قائمة باسمها لحتى الآن لكنها معطلة]

في منتصف شارع القسام، تجد أقدم بائع للتبغ والدخان، (بربخ دخان)، دكان صغير جدا، يوجد بها أكياس طويلة (إشوال) من الدخان الشامي والعربي، الدخان الشامي كان يحصل عليه بالجملة من منطقة زراعته في يعبد، عبر التجار الذين يأتون من الشمال إلى منطقتنا، والدخان العربي يزرع في المناطق الشرقية الزراعية بكميات قليلة أو بشكل شخصي، يأتون إلى بربخ ويبيعونه المحصول، وكان يوفر للمدخنين أوراق اللف البيضاء، وبعض (المباسم) والقداحات وعلب الكبريت، وكان أيضا يصلح

القداحات وخاصة قداحات الكاز الأبيض، وعندما يحصل على نوع جديد من الدخان تجد الرجال يجلسون القرفصاء أمام المحل يجربون التبغ الجديد...

أمام محل التبغ القديم والأول في المنطقة تجد أول قزم عرفناه في حياتنا عبد المالك محجوج، شكله غريب، رأسه كبير، لا يتعدى طوله المتر، يعمل في صناعة الكراسي الخيزران والقش، يده تلف بالحرير، يمكنه صناعة كرسي من عيدان الخيزران وعيدان البوص، دون أن يدق مسماراً واحداً في الكرسي، عنده كانون من النار يضع الخيزران على النار ويلتوي معه ويشكل ما يشاء من الكراسي، ثم يضع قطعة قماش مزركشة عليه، كرسي تحفة فنية، وكان أيضا عبد المالك يؤجر الكرسي المزدوج العالي الكبير لزفاف العرائس.

الشارع الثالث موازي للشارع الثاني يلتقيان في آخر عشرة أمتار، (شارع الجورة) ثلاثة معالم تميزه، أولها بيت مشيل زكي الصيدلي المسيحي صاحب أقدم صيدلية عرفتها مدينتنا، مشيل المسيحي، آخر عائلة مسيحية بقيت عندنا لدافع اقتصادي، وباقي المسيحيين رحلوا لأماكن لتليق لهم من ناحية الطقوس الاجتماعية، صيدلة مشيل كانت

في بيته، يتعامل معه الجميع كبارا وصغارا، كان بارعاً في وصف الدواء، وإذا أردت الشفاء من مرضك العرضي، عليك بدواء ميشيل، ومقدار المريض عند عائلة حين يجلب له الدواء من صيدلة ميشيل.

وقصتي الخاصة معه، في أول زيارة له، حين طلبت مني أمي دواء لوجع الرأس قالت: اذهب عند المسيحي ميشيل وأحضر هذا الدواء، وقتها ركضت، لأعرف ما اللغة الذي يحكي بها المسيحي، كنت أتوقع أنه يحكي انجليزي، لكن حين دخلت عليه وطلبت منه دواء لوجع الرأس، وصف لي نوع جيد وطريقة تناوله، تفاجأت أنه يحكي عربي، اندهشت، وعدت للبيت، وأنا أردد في خاطري (مسيحي وبحكي عربي).

في منتصف طريق الجورة منطقة (جورة العقاد) جزء ينخفض عن باقي المدينة بعشرة أمتار، مكتظ بالسكان والبيوت المتشابكة، سكنوا في المكان بعد الهجرة، هذه المنطقة دائماً تغرق من مياه المطر في فصل الشتاء، وأصل المنطقة لعائلة مالكة (العقاد) وقد رفع قضية كبيرة يريد استرداد أرضه، ومازالت القضية مغلقة، خرج من هذه المنطقة الكثير من الشخصيات التي تركت أثر في

حياتنا، ومن أهمهم (المجبر الأخرس) يا الله كم كان بارعاً في علاج الكسور (الطب البديل) وكان يأتي له الناس من كل مكان ليعالجوا الكسور، وزادت شهرة الأخرس، حين كان يستعين به أطباء العظام في علاج الكسور في المشفى. حين تحضر عنده عليك فقط أن تشير إلى مكان الوجع، فكان يصدر صوت صراخ، ومن ثم يمسك مكان الألم، أنت تفقد الوعي لدقائق من الوجع الحاد، لكن كلها يوم أو يومين لا أكثر يختفي الوجع منك، كان يضع أعشاب ولفاف مخصوص لعلاج الكسر.

والقسم الأخير من شارع الجورة، موجود محل (الياسوري للبوابير) البابور المصري، معظم الناس تستخدمه لطهي وتسخين الماء للاستحمام وغسيل، والتدفئة، له صوت يشبه صوت صفير القطار، كان الياسوري يصلح الثقوب ويغير رأس البابور ويعلم الناس تنظيفه، كانت الناس بالطوابير عليه وكان عليك أن تحجز يوم كامل لتنول غرضك منه.

الشارع الرابع (شارع الحاووز) يوجد به حاووز ماء طويل جدا، حين تشتد المواجهة بين الشباب والجنود، كانوا يعتلونه ويراقبوا كل المدينة، ويطلقون الرصاص على

الشباب، وفي مرات كان الشباب يتسابقون لرقع العلم على سطحه، كان عاليا جدا، مطليا باللون الأصفر، يضخ الماء إلى كل بيوت المدينة، هو معلم يظل نابض في ذاكرتك، أينما وجهت نظرك تراه كقمر أصفر في كل الاتجاهات.

هذا الشارع به الكثير من القصص والناس الذين نقشوا أسماءهم في تاريخ المدينة لكن علينا أن نذكر الشيخ فؤاد والشيخ صالح، لا نعلم كيف أصبحا أصدقاء، يدوران في كل الشوارع وخاصة على بيوت العزاء يتلون آيات من القران والذكر، كانا لطيفين والكل يحبهما ويحب حضورهما.

الشارع الخامس (الشارع الطويل) يوازي الشارع الرابع، يوجد بعض الطرق الالتوائية، تصل بين الشارعين، المسافة بينهما عرض أربعة بيوت مصفوفة بينهما، لا بد أن تدخل هذا الشارع كل شهر تقريباً، لتري فرقة الدبكة (الفولكلور الشعبي) [السمران] هذه الفرقة هم مجموعة فتية ببشره سوداء على نغمات الناي والطبلة يقدمون عروض دبكة تأخذك إلى كل شيء جميل، يأتي الناس ليتفقوا معهم ليقدموا وصله فنية في الأفراح والمناسبات السعيدة،

قائد الفرقة أمين الأسمر وهو المغني، يحفظ كل الأغاني الدلعونة والدحية والمواويل القديمة، هذه الفرقة قادرة أن تجعل كل رجال المدينة يشاركون بالدبكة والرقص حتى الصباح.

بجوارهم تعيش الحاجة أم العوف خبيرة علاج الخوف والتبول اللا إرادي عند الأطفال، (تقطع الخوفة) يأتي الأطفال مع أهاليهم، وتمددهم وتضع قطرات من زيت الزيتون عند المنطقة الوسطى وتبدأ بالتدليك بأصابعها الخشنة، يصرخ الطفل بأعلى صوت، ومن ثم تمسك كل مفاصل جسده وتدلكها أيضا، خمس دقائق يقضيها الطفل تحت يديها كأنها خمس سنوات من الألم، من بعدها لا يبقى خوف ولا تبول لا إرادي، وبعض النساء يذهبن لها للعلاج من تأخر الحمل (تطبيق الظهر) تظن بعض النساء أن تأخر الحمل، من وجع الظهر، فتقوم الحاجة أم عوف بحركات في العمود الفقري للنساء بأصابعها حركات كأنها تعجن الدقيق، والظريف والرائع بعد هذا العلاج تحملن النساء وبعد الحمل يأتين لأم العوف ويحضرن الهدايا والطعام والحلويات.

في نهاية الشارع يوجد مساحة من الرمل المنبسط، لأبي جبر، ينصب المراجيح والزحاليق اليدوية، في المواسم والأعياد، طوال شهر رمضان، وعيد الفطر وعيد الأضحى، يتوافد الأطفال مجموعات مع أهاليهم في الأعياد عند أبو جبر، بملابس العيد الجديدة والأحذية والبالونات الكبيرة والسكاكر، يكون بانتظارهم باعة الفول النابت، والترمس المالح والفستق المحمص والبليلة (الحمص المسلوق) وشعر البنات... يوم طويل ومرهق لكنه جميل وحين تركب المراجيح وهي تعلو بك وتهبط تكون في عالم آخر..

الشارع السادس (شارع الرعب) بدأت قصة الرعب به من أشجار الكينيا المزروعة بشكل عشوائي على طول الشارع، دائما معتم، كأن الليل يهبط عليه أسرع من كل الشوارع، كانت الأشجار تعكس على التراب والجدران أخيلة متحركة تدب في قلبك الرعب والخوف، تشعر أن ظل الأشجار يتحرك ويمشي ويقفز ويتكلم.

كان من ألعاب التحدي بين الشباب أن يدخلوا الشارع في الليل، يبدأ الرهان على علبة دخان من نوع (إمبريال) هذا الدخان صناعة وطنية وهو الأكثر طلباً بين المدخنين،

رخيص الثمن، وقوي المذاق، ولا يوجد به شوائب ولا عوالق (تبغ نقي)، يقوم أحد الشباب بوضع علبة دخان في مكان في الشارع، يحددها للمتراهن الذي سوف يجلب العلبة بأسرع وقت، يختار وقت يكون الجو كله رعب، كثيراً ما كان يخاف المتراهنون اللعب في هذا الشارع، والسبب بيت الشيخ عادل الذي يُخرج الجن وعلاج المس الشيطاني كما يدعي الجميع، الشيخ عادل رجل وسيم له ذقن طويلة بيضاء يضع عليها الحناء الحمراء، يرتدي ملابس بيضاء قصيرة، عيونه ثاقبة لو نظر إليك ترتعب، كان يخرج الجن، وقد رافقت أبي وعمي بزيارة للشيخ عادل لأن عمي شعر بتخيلات وصار يتكلم مع نفسه كثيراً ولا يأكل ولا يشرب وصار يحب العزلة، فقرر أبي أن يأخذه للشيخ ظاناً أنه (راكبه جن) رافقتهما، وحين دخلنا البيت (يوجد غرفه في البيت التي يتم بها العلاج، فيها فرشه في منتصف الغرفة، ومسجل وعشرات الأشرطة مكتوب عليها سورة يس، سورة البقرة، سورة الجن، تجد زجاجات مياه وقطع من الخراطيم، وعصي، وصحون بها زيوت منها زيت الزيتون وزيت الكافور وزيت حبة البركة).

جلسنا في غرفة الجن، أمسك الشيخ يد عمي وأجلسه على الفرشة، تمدد عمي بدون أي مقاومة، بدأ بقراءة آيات وأدعية، فبدأ جسد عمي ينتفض، يلتفت إلى الشيخ ويقول: عليه واحد مارد، وقتها يصير عمي تشكل بصوت خشن وعيونه تبيض، أنا ارتعبت من المنظر وأمسك بيد أبي، أمسك الشيخ الخرطوم وصار يضرب عمي بقوة ويقول بصوت عالٍ مخيف: (أخرج) (أخرج) من أصبع قدمه الصغير من القدم اليسرى، أنا رأيت هذا المشهد فكدت أتبول في بنطالي، ولم أحتمل المنظر والصراخ فخرجت أركض هرباً، ويا ليت لم أخرج، شعرت أن الأشجار تلاحقني، والظلال تركب على ظهري، ركضت بأسرع ما أملك من قوة، ويا الله أن تقابل أحد كلاب عبد الله فرج مربي الكلاب الضالة، الذي يسكن في نفس الشارع، عنده كلاب ليس لها مثيل من الشكل والقوة والأسنان الطويلة، فكان من سوء حظي أن ظهر لي أحد هذه الكلاب، وقتها فقدت الوعي، ولم أفق إلا بعد يومين من النوم في حضن أمي، وحولي أبي وعمي وقد فاق من جنونه (طلع الجن)، قال أبي لي: لماذا هربت من بيت الشيخ عادل، لقد وجدك عبد الله نائم في منتصف الطريق فحملك وأحضرك

للبيت.. [لم أكرر هذه التجربة، طوال حياتي إلا يوم واحد، لكن تبقى في الذاكرة طوال حياتي].

الشارع السابع (سوق الحلال) هو شارع متحرك، ينشط يومين في الأسبوع، السبت والإثنين، تعرض مئات الأغنام للبيع والتلقيح والتزاوج، وكان يرافقه بيع الطيور في نفس الشارع، كل أنواع الحمام واليمام والبط والأوز والدجاج البلدي والدجاج الفرعوني، يوم السبت ينشط لأن الرجال الذين يعملون داخل الأراضي المحتلة يكون يوم إجازتهم، فيذهبون لشراء الخراف لذبح للمناسبات، أما يوم الإثنين فهو عطلة الجزارين، يذهبون للسوق ليشتروا الخراف والماعز والأبقار الصغيرة لذبحها وبيعها خلال الأيام الباقية من الأسبوع.

كانت فكرة ذبح العقيقة (عن المولود) واجبة في ذلك الوقت، والفدية [يحلف الرجل لو نحج ولدي سوف أذبح خروفاً، أو أذا أنجبت زوجتي ولدا ذكرا سوف أذبح ماعز] بصراحة كان رجال المدينة دائما يوزعون اللحم على البيوت في شتي المناسبات.

كنا نهرب من المدرسة لنلعب على الخراف والأغنام ونتمتع بمنظر الطيور، وحين يهرب أي خروف من

صاحبه كانت تحدث جلجلة في السوق فكنا نركض خلف الخروف حتى نمسك به، وكنا نراقب الأنواع الغالية من الأغنام ومنظرها الغريب وخاصة (العساف) ذو الأنف القصير والفم الأعوج.

الشارع الثامن (شارع التحتي) هو أحب شارع لنا في المدينة، شارع منظم، مزروع به أشجار ظلّ، بيوته مرصوفه بشكل منظم، يبتعد البيت عن الآخر مترين، الشبابيك واسعة وعالية، سكان هذا الشارع من السكان الأصلين للمدينة، عندهم عادات خاصة جداً في الطعام والزواج والملابس، في الطعام: لا يجلسون للغذاء مثلنا بعد صلاة الظهر مباشرة، يكون قبيل صلاة العصر، ولا بد أن تجتمع العائلة كلها على الوجبة، [لا أذكر أن عائلتي أكلت على وجبة واحدة مجتمعة، نأكل فرادي] دخلت الكهرباء والضوء الأصفر لهذا الشارع قبل كل الشوارع، كان يوجد مجلس لإحدى العائلات يجلس به كل رجال الشارع مساءً، وفي يوم انتشرت الأخبار أن منصور البحري من الأغنياء كان عنده منجرة [مشهورة بصناعة صناديق خشب وأسرة من الخشب لتجهيز العرائس] اشتري تلفازا أبيض وأسود، فذهبنا نشاهده، كان يعرض

أغنية لأم كلثوم، كانت أول مرة في حياتنا نرى سيدة تغني ومئات الرجال يستمعون إليها.

يحلو لك في هذا الشارع أن ترافق أحد أصدقائك وتتمشى فيه، من أول الشارع إلى آخره، تراقب أحبال الغسيل والملابس الخفيفة والملونة التي تجعل روحك منتعشة من هذا الجمال، حاول الكثير من الشباب من الشوارع الأخرى أن يتزوجوا من بنات الشارع التحتي، لكن كان الرفض، ومن أصعب العادات لهذا الشارع أنهم لا يزوجون إلا لرجال نفس الشارع، الكثير من القصص الحب والغزل التي فشلت.

[C]

غالبا ما تكون الحصة الأولى لغة عربية، كان مدرسها جلال حسن بارعاً في اللغة العربية، يحكى لنا قصصاً من لغتنا وعن روادها وعن الشعراء والكُتاب والمؤلفين، نكون منجذبين، لكننا لم نفهم يوماً كيف نحفظ (أخوات كان) أو (أخوات إن) لكن بكل ما أوتينا من قوة حفظنا المبتدأ والخبر، وكنا بارعين في إعراب الجار والمجرور.

أذكر كان عنوان الدرس عن أنواع المفعول به، وقبل أن يبدأ بالدرس، دخل الناظر وبيده طالب جديد، وقتها وقعت قلوبنا في أقدامنا من العقاب الي سيحل علينا، لأننا البارحة هربنا من الحصة الأخيرة لنشاهد مباراة لكرة الطائرة بين مدرستين للبنات وتسلقنا جدران المدرسة وصرنا نصفر ونصفق للبنات.

تقدم الناظر جهة المدرس جلال، وأخبره: بأن هذا طالب جديد سوف ينضم للصف، وحين علمنا أنه لم يحضر للعقاب، ركزنا بالطالب الجديد، وحين عرفنا اسمه (نسيم الأغا)، كان جميلاً وأنيقاً، ثيابه بالمسطرة، حذاؤه يلمع،

قميصه داخل البنطال، شعره مسرح على جنب، شعره بني وبخصلات شقراء، خدوده وردية مدورة، فمه صغير، أسنانه بيضاء، عيونه تلمع من الخجل، زيه المدرسي مميز جدا، كأنه فصله عند أمهر الخياطين، حين ابتسم كان يضع حول أسنانه سلكا فضيا. قال بصوت عذب: مرحبا!!.

خرج الناظر وترك المدرس جلال حيراناً أين يجلسه وفي أي مقعد، فكان يُطلق علينا (فصل الذئاب) ظلّ حيران لعدة دقائق، حتى اختار المقعد الأول بالقرب من باب الغرفة، مكان أحد الطلاب الغائبين، كان مقعد راضي حمد كنا نطلق عليه شيخ الصف، كان يأتي بجلبية (جلباب) بيضاء وطاقية صوف ويحمل مسبحة كهرمان ملونة وبيده دائما كتب دينية منها عذاب القبر، أهوال يوم القيامة، وضوء الصالحين، وكان راضي وقت الآذان يقوم من مقعده ويؤذن في ساحة المدرسة بصوت جميل يرق له قلبك ويصيبك بالخشوع كأنك تقف في مكان مقدس.

ويغيب كثيراً إما ليذهب ليتابع حلقات الذكر (الديني) في المساجد أو يخرج في سبيل الله كما يقول على المناطق

الزراعية البعيدة ليهدي الناس للصلاة ويعلمهم تلاوة القرآن.

وبالمصادفة هو غائبُ لمدة أربعين يوم في الخروج في سبيل الله، (مجموعة من الشيوخ يختارون منطقة بعيده، يحمل كل واحد غطاءه وطعامه ويتجولون في المنطقة يلقون الدروس الدينية وينامون في المساجد، ويدعون الناس للمشاركة معهم في هذا العمل)

جلس نسيم بالقرب من عماد طربي في المقعد، الذي يكون أول التلاميذ بالمدرسة الحضور قبل الساعة السابعة، لأنه يساعد أباه وأخوته في الصيد على مركب خشبي صغير، يخرج للصيد الساعة الواحدة ليلاً إلى البحر، فيصطادون السمك بأنواع مختلفة بكميات مقبولة، ثم ينقلون الصيد إلى منطقة (حسبة السمك) على الشاطئ، فيبيعونها ويأكلون ما تبقى من الصيد، دائما رائحته تشبه بهارات السمك، (الثوم والبصل ومقلي البندورة) كل يوم يفطر سمك مشوي.

ينتهي من العمل الساعة السادسة صباحاً قبل شروق الشمس، ومن ثم يأتي للمدرسة باكر جداً. أغلب المدرسين، يوصونه أن يحضر لهم السمك ليشتروا منه،

وحين يشترون منه السمك، يرسلون أحد الطلاب ليوصله إلى بيوتهم، لتجهزه زوجاتهم وجبة الغذاء حين الانتهاء من الدوام المدرسي.

وفي مرة غاب عماد لمدة أسبوع عن المدرسة وانتشر خبر أنه غرق في البحر، حيث قلبت المركبة، لكنه عاد للمدرسة بعد ذلك! وحين سألناه: كيف نجوت من الغرق؟

قال: حين سقطت في ماء البحر، جاء شيء أبيض تحتي وحملني لمدة ثلاث أيام، وحماني من الغرق، لكن هذا الشيء كان ما بين السمكة والأنسان، وظلّ معي حيث أوصلني بعد سباحة ثلاث أيام إلى منطقة بعيدة عن مكان مرسى المراكب، كنت أنام كثير على ظهره وبعد ذلك استيقظت في مكان لا يوجد به أي أحد.

وجاءت سيدة تحكي معي لغة غريبة تشبه اللغة الذي يحكي بها عمال الأراضي المحتلة، وحملتني إلى مكان ما.

وبعد ذلك عرفت أن البحر جرفني إلى شاطئ ميناء المجدل (أشكلون)، بقيت عدة أيام بالمشفى ومن ثم جاءت شرطة (نجمة داود) وسلمتي لعائلتي...

[شرطة نجمة داود، هي شرطة مشتركة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وكانوا يستخدمون الخيول في الملاحقة وخاصة النشالين المنتشرين في الأسواق، وكان الناس يخافون منهم]

وحين كان يحكي عماد قصته كان يسمع راضي حمد فصار يكبر بصوت عالي، الملائكة التي حملته وحمته من الغرق، سبحان الله، سبحان الله...

لكن الجميع لم يقتنع بالكلام، لأن عماد طربي، عنده موهبة الحكواتي ويبهر الأشياء ويكبرها، كأنه يسرد فليما هنديا طويلا.

لأننا حين سألناه: هل كنت تلبس ملابس الحماية من الغرق (زي السباحة).

أكد: أنه لم يلبسه في حياته..

[يوجد قانون من شرطة نجمة داود، ممنوع الصيد في البحر إلا بكامل الزي الحامي من الغرق، والكل ينفذ ذلك لأننا كنا تحت الحكم العسكري الإسرائيلي].

ورث عماد طربي شيفرات الحكواتي من أخواله، كان عندهم قهوة (المنسي)، وأبوهم الذي أطلق عليه المنسي

لأنه وجد طفلا نائما (تائه) على كرسي القطار الذي يربط قطاع غزة في مصر.

وجده أحد الركاب، وصار يحمله كل يوم عند سكة الحديد (المحطة)، ولم يتعرف عليه أحد، فتربي في بيوت المدينة، وكبر وكان يعمل في كل شيء في المدينة وفتح مقهى صغير.

تزوج المنسي بنت أبو فرج الذي يعمل تبليط أرضيات البيوت بالأسمنت، كان يحضر الحصى الناعم والأسمنت وعنده أدوات خاصة للعمل بها، أبو فرج بلط ورصف معظم البيوت، وصار للمنسي عائلة كبيرة.

قهوته (المقهى) كان بها كراسي قش قصيرة من خشب البلوط، كؤوس بنية اللون قصيرة، عُلب من الحديد مربع الشكل يضع بها القهوة المطحونة والشاي والسكر والحلبة واليانسون وبعض الأعشاب..

(يستخدم عُلب الحليب الأجنبي لان منظرها جميل، التي كانت توزع كمنح للصغار أقل من عام وللحوامل على بطاقة خاصة يطلق عليها (بطاقة حامل)، هذا الحليب له مواصفات خاصة من الفيتامينات والمقويات والكالسيوم وعند الولادة تتحول هذه البطاقة من بطاقة حامل إلى

(بطاقة مولود) فكان يحصل المولود على ملابس وبعض الأغذية منها الزيت والحليب والطحين كل شهر من وكالة الغوث)

يوجد أمام كل أربعة كراسي طاولة صغيرة توضع عليها المشروبات، على الحيطان بعض صور معلقه بشكل عشوائي أذكر منها صورة لجمال عبد الناصر، لعمر المختار، لأم كلثوم، وصورة لأم المنسي، قد رسمها شخص له حين كان يتذكر ملامحها قبل أن يضيع في القطار.

أخواله كانوا يروون القصص بشكل خيالي يجذب الزبائن للحضور كل يوم، طبعاً لا أقصد قصص التاريخ أو قصص أبو زيد الهلالي، أي قصة لو كانت حدثت في التو والحاضر.

جلس أمامي، أنا خالد فهمي، دائما أحب الجلوس في المقعد الثاني، لأترك لأنفسي مجالاً لتفكير في أي أمر طارئ.

أنا من صفاتي أن أكون الرقم الثاني للحدث، لو دخل أحد على الصف ويريد أمراً، يتوجه بعفوية للمقعد الأول

ليسأله، أنا أكون قد حصلت على وقتي لأوفر الإجابة الصحيحة لو فشل ذو المقعد الأول.

أكره الإصابة بأي مكروه، أحاول جاهداً تفادي الإصابة بالعدوى وخاصة بعض الأمراض التي تنتشر منها (الجدري المائي) لأنه حين ينتشر هذا المرض نُطلى بالشيد الأبيض حتى تجف الحبوب الجلدية، لذلك أبتعد عن المصابين، ولا أحب أن أصاب بمرض (رمد البلح) لأن حين يصاب به زملائي تتحول عيونهم حمراء والدموع غزيرة كعيون الأشرار، كانوا يتعالجون بوضع مغلي الشاي الجاف المر على عيونهم، وعندي قناعة مطلقة أن الذهاب للعطار عبد الله وادي هي مضيعة للوقت والمال.

(عبد الله وادي، شيخ العطارين، بل أول من أبدع في هذه المهنة، له دكان صغير لا يتجاوز مترين مربعين في وسط السوق، عنده مئات الأعشاب لعلاج أي مرض، فقط عليك الذهاب عنده وتصف مما تشكي، يخرج لك عشبة ويخبرك طريقة استعمالها (الوصفة الطبية)، دائما الرجال والنساء يتزاحمون على باب دكانه، لشراء الأعشاب لعلاج الحصوة والأملاح والسعال الديكي،

وحوائج الكعك البلدي تفوح رائحتها الزكية وتنتشر في السوق).

الرقم الثاني في المجموعة شيء إبداعي، وقد لا تختاره أو تتعمد أن تكون الرقم الثاني، لكن هذا الترتيب يأتيك هبه من الله، أن تكون الولد الثاني في العائلة، أو تكون مساعد قائد فريق كرة القدم، أنت من تمرر له الكرة وهو يحرز الأهداف، لكن كما يصفق له أيضا يشار لك بالتحية والاحترام، حتى حين كنا نشارك في رمي الحجارة على الجنود وإشعال الإطارات، لا أكون في السطر الأول، لأن المتقدمين في السطر الأول وقتها لابد أن يصاب أحد بالرصاص أو بقنبلة الغاز، والكل يعرف أسماءهم، الاحتمال الكبير أن يتم اعتقالهم في الليل، لأنهم كانوا ظاهرين أكثر من السطر الثاني.

كانت إدارة المدرسة بعد نتائج الامتحانات تكرم ثلاثة متفوقين من كل فصل دراسي، تكون أنت فيه، الأول يحصل على هدية كبيرة مثل كرة فاخرة أو خمس روايات لنجيب محفوظ، أو ثلاث بناطيل (دون الاهتمام بالمقاس).

أما الثاني، وهو أنا، فكنت أحصل على قرطاسية كثيرة من دفاتر وأقلام وكراسات رسم وأقلام رصاص، كنت أستفيد بها للعام القادم وكان أبي وأمي يفرحان بهذه الهدية القيمة، ويمكن أن توزع على أخوتك بعض القرطاسية.
أما الثالث فيكتفي الناظر وإدارة المدرسة بأن يعطوه حقيبة جلدية عادية، وبعض النصائح ليجتهد في العام القادم.
بيتنا أيضا الرقم الثاني، مثل أبي الرقم الثاني في عائلته، عمي الأول نادر أحمد كان المصور المشهور في المنطقة، وتعلم هذه المهنة وهو فتى كان يعمل مع يهودي في القدس في استيديو صغير للتصوير بكاميرات باللون الأبيض والأسود، كان ينظف مكان التصوير وفي أوقات كثيرة كان ينام هناك، يبقى لمدة أسبوع وأكثر ولا يحضر إلى المنزل، لكنه كان ذكياً جداً ويلقط كل شيء فتعلم التصوير، وفي يوم مرض اليهودي وطال مرضه، فاقتنص عمي الفرصة وصار يلتقط الصور للزبائن، وكانت جودة صوره أفضل، فصار يدير المحل، حتى توفي اليهودي، فلم يكن أمام عمي سوى أن يأخذ الكاميرات ومحلول التحميض، وفتح أول محل تصوير في مدينتا، الكثير من زبائنه كانوا لا يتذكرون أن يأخذوا

صورهم، لسبب ما، فكان المحل يعج بالصور لأناس مجهولين، ولو وقعت في يدك تأخذك إلى عالم ممتع مع ملامح الناس وكيف يتصنعون الابتسامة أمام الكاميرا، والذي ميز عمي في مهنته، أنه استطاع أن يشتري كاميرا (صورة بالألوان).

فكان يحملها وينطلق إلى شاطئ البحر يصور الناس والمراكب والصيادين والأطفال، والعائلات، ويعطيهم ميعاد لاستلام الصور بعد تحميضها، أيضا كان الناس لا يتذكرون موعد استلام صورهم فتظل الصور على رفوف الأستوديو بدون صاحب حتى تشيخ ألوانها.

وفي ليلة غامقة جداً والليل بارد جداً، جاء شاب من جيراننا محمود حامد، وطرق الباب علينا بقوة، وطلب من عمي أن يصوره صورة شخصية في بدلة عسكرية، فخاف عمي من ذلك، لكن الشاب أصر على ذلك، أقدم عمي على التقاط صوره له، (قانون من الحاكم العسكري ممنوع التقاط صور بالزي العسكري [الفدائي] أو البنادق، أو القنابل) وأخبر الشاب عمي: أن أحد أصدقائه سوف يأتي ويأخذ الصورة، بعد أن التقط له الصورة، حمضها

(أخرجها بالألوان) أكثر من نسخة، وخبأها في مكان سري..

في الصباح انتشر خبر أن هناك شاب قفز على دبابة جنود، من عمارة أبو دقة، وفجر نفسه بالدبابة [عمارة أبو دقة هي أول وأطول عمارة تشهدها مدينتا، حوالي عشرة طوابق، عالية جداً، كنا نذهب ونظل مندهشين منها، كيف بناها صاحبها، نظل واقفين بالساعات نتأمل بناءها].

بعد الخبر جاء شاب آخر لعمي وأخذ صورة محمود، وفي أقل من ساعة كانت الصورة معلقة على كل الجدران مكتوب تحتها [الشهيد البطل/ محمود حامد].

كنت أنا وعمي نراقب بعض الملثمين وهم يعلقون صور الشهيد، عمي نظرّ بإعجاب بالصورة، وقال: كان محمود لا يضحك (حاد الملامح) حين التقط الصورة، فكيف صار مبتسماً، رددت عليه: الشهادة وحدها تعلمنا الابتسامة..

كانت ليلة قاسية علينا من الجنود، كل أصدقاء محمود اعتقلوا، وهدم بيته وعائله نامت عند الجيران، أما عمي فقد هرب من البيت، لا نعلم إلى أين بعد أن أحرق كل

الصور وأخذ الكاميرا الملونة معه، وظهر بعد عام يحمل بندقية وصار من حملة السلاح ولكن الكاميرا كانت أيضا برفقته.

بيتنا الرقم الثاني في الشارع الخلفي (لا يطل على الشارع العام) لكنه كان بيتنا ملاصق لمكان مهم جداً في حياتنا هو (الطُعمة) [مكان يوزع بع طعام يومي علينا بل على كل منطقتنا، على أن تكون أقل من أربعة عشر عاما، يعطونك يوميا، لحم بقري معلب، وبيض مسلوق، وطبيخ بازلاء وطبيخ فاصوليا وأرز أبيض، وخبز، وجبنة صفراء، ولا بد أن يكون معك بطاقة طعمة، ولها جدول استلام الوجبة، أهم شيء أن نحصل على هذه البطاقة].

أمام عتبة بيتنا مسرح للأحداث والمشاكل على مكانك في الطابور الطويل في ممرات الطعمة، وتجد بعض التجار يشترون علب اللحم البقري وعلب الجبنة الصفراء، يبدأ التوزيع من الساعة الثامنة صباحاً حتى منتصف اليوم، لا يمكنك أن تنام في بيتك أو تحصل على هدوء إلا بعد الانتهاء من فترة التوزيع..

لم ننتبه بتركيز لمدرس اللغة العربية جلال حسن الذي تتلمذ في اللغة العربية على حدّ قوله على يد علامة

مدينتنا الملقب (سيبوي فلسطين) الذي شارك شيوخ الأزهر في مصر في إعراب النصوص الدينية، بل كان سيبوي فلسطين يدعى إلى كل مؤتمرات اللغة العربية ليعد معجم اللغة العربية الحديث في الوطن العربي، مات سيبوي وترك علمه مع عدد محدود من محبي اللغة العربية، وأخبرنا: أنه حصل على وظيفة مدرس قبل أن يكمل دارسته في الجامعة لأنه كان عبقريا.

ومن المفارقة الغريبة جداً أن جلال حسن كان له أخ يشبهه كثيراً إلى حدّ لا يمكنك أن تميزهم، كان يطلق عليه الواوي كان يبيع الذرة المشوية، يضعها في وعاء خشبي ويلفها بقماش (خيش) وله أغنية مشهورة (يلا الذرة الناهية خلي اتكالك على الله).

بصراحة كانت أشهى وأطيب طعم ذرة رخيصة الثمن، يعطيك كوز الذرة ومعه القليل من الملح ومطحون الفلفل الأحمر الناشف.

وعدا عن موسم الذرة كان يعمل منادي للناس (المنادي، لو فقد الناس أي شيء مثلاّ ولدا أو دجاجة أو حمامة أو بطة أو غنمة أو نقود، كانوا يعطونه أجراً مقابل أن يلف لهم في شوارع الحارات ينادي ويبحث عن المفقود).

كان الواوي يأتي كثيراً إلى المدرسة وكان يحب أخاه المدرس جلال وكان يحضنه ويعطيه كوز ذره، فيخرج جلال نقوداً من جيبه ويعطيها لأخيه، كان مشهداً عاطفياً لحدّ البكاء بين الاثنين، فهما عاشا يتيمين بدون أب، وأمهم فقدت بصرها سبب شظية قنبلة في الهجرة، والواوي كان يتكفل بمصاريف العائلة.

[D]

في هذه الحصة الجديدة علينا، أول مرة في تاريخ الدارسة نرى مثل نسيم، الجميع كان يتأمله، والكل كان يتمنى أن يكون مثله، وصرنا نقارن على وجه السرعة تفاصيل حياتنا اليومية بتفاصيل حياته اليومية له، ما هو شكل بيتهم، ماذا نوع الطعام الذي يأكلونه، هل يرتدي أبوه البدلات وربطات العنق، أكيد عندهم الكثير من الفواكه والعصائر الطازجة في البيت، بيتهم له حديقة وعندهم شجرة برتقال وأحواض من الورد وعندهم قطة بيضاء، والكل كان يفكر إذا هو جميل فكيف أخواته البنات، يبدو أن عائلته تنام على أسرّة عالية وغطاءات ناعمة ولا يُدخلون بيوتهم البطاطين الخشنة التي تنتشر في بيوتنا، بعضهم أصابهم شعور الغيرة دون أن يعرفوا أي معلومة عنه.

انتهت حصة اللغة العربية بسرعة، دون أن يقدر المدرس على أن يعطينا أي معلومة جديدة، حمل دفتر التحضير وعصاه الصغيرة وأصابع الطباشير، ومحاية اللوح، وخرج من الباب.

وقتها قفز سليم الشوكة، وأنور التنح، عند نسيم وبدون أي مقدمات يسألونه: أنت من أي مكان جئت علينا، ولم تجد إلا مدرستنا تأتي إليها.. هاجم أنور سليم وصرخ بوجه: انتظر أسألتك تافهة مثلك، فسأله أنت من عندنا أو من مركز المدينة..

التف الأربعون طالب حول نسيم ينتظرون أن يتكلم، أو كلمة نطقها: في الحقيقة أنا جئت من سوريا، أبي كان يدرس الهندسة هناك، وبعد الدراسة حصل على عمل مع شركة مقاولات، وأمي فلسطينية من سكان سوريا أيضا، وولدت هناك، لكن أبي خطفته الشرطة السورية ولم نعلم أي خبر عنه، فخافت أمي أن تجلس لوحدها هناك، فقررت العودة إلى هنا، إلى مسقط رأس أبي، عند جدّي الدكتور وجدي الأغا، أكيد سمعتم به، أنه أول طبيب في المدينة!، وحين سمعوا بالدكتور وجدي الكل أخذتهم الذاكرة ليوم الختان.

(الطبيب وجدي الأغا بالفعل كان أول طبيب في المدينة ومن مشاهيرها، وكان مشهور بختان [الذكور] وعلاج الجروح، وعلاج حب الشباب، طبيب شامل، وكانت عيادته يرتادها الجميع، كان عنوانها قريبا لمنطقتنا، وكان

يأخذ أي مبلغ مقابل العلاج، من قصص الختان المشهورة عنده كان الآباء يوصلون أولادهم عنده بطريق الحيلة والخدعة، لو علم الأولاد أنهم سوف يذهبون لعميلة لهربوا، كان يقوم بالعملية بالموس الكباس [قرن غزال] وهذا الموس لو وجد مع أحد في الشارع كان عقابه الاعتقال لمدة ستة أشهر عند الشرطة، كان من الأسلحة البيضاء المنوع حملها في الشارع، وحين تنتهي العملية، كانت النساء تضع السلاسل الذهبية في أعناق الأولاد على تأكيد أنهم أصبحوا رجال، موعد العملية حين يدخل الأولاد المدرسة أكبر من ستة سنوات، ويأتي كل الجيران ليباركوا ويهنئوا ويشتروا الطبلة والدف من الست أم حمدان فهي بارعة في صناعة الطبلات الجلدية، ويتمدد الأولاد بعد الختان في وسط البيت، ويأتون بأشياء تهف عليهم الهواء البارد لأن مكانها يكون ساخناً جداً بل ناراً مشتعلة، ولا بد أن يتبول الولد على مكان الجرح ليشفى ومن ثم يقوم ليركض في الشارع ويلعب، ويظل يلبس الثياب الواسعة دون الملابس الداخلية لتقليل الاحتكاك بالجرح)

سأل أنور التنح وسيم:

– ما هذا السلك الفضي الذي في فمك حول أسنانك؟

– هذا تقويم أسنان، شعر جدّي بأن أسناني بها اعوجاج، وكان عندي سن زائد في فمي، فاتصل بصديقه دكتور أسنان، وشرح له حالتي، فاقترح عليه أن يخلع السن الزائد، ويركب لي تقويم أسنان.

– تكلم سليم والجميع في حالة دهشة: هل تخلعون أسنانكم عند دكتور أسنان... [من كان يسمع الحديث، لا يملك أي معلومة بأن طبيب الأسنان له مكان خاص (عيادة خاصة)، الجميع هنا يعالج أسنانه علاج ذاتي في حالة الوجع يضع القرنفل أو الملح أو فص ثومة، وفي حالة التسوس يربط الطاحونة أو السن بحبل مصيص قوي، ويربط الطرف الآخر في فتحة بالباب، ويأتي أحد ويغلق الباب بقوة، وقتها يخرج السن من مكانه مع القليل من الإغماء، ومن ثم قطعة قماش على مكان الدم، والقليل من الملح والماء، وهي ساعة لا أكثر يختفي الوجع والسن].

– كرر أنور: هل هذه الحديدة مهمة كثيرا، منظرها غالية جدا..

– طبعا غالية، تقدر بألفي دولار أميركي، وجدي قال: لأكون أكثر جمالاً..

– يااااه ألفى دولار ... والله بأشتري فيهم، بأشتري فيهم لم يعرف أن (بألفي دولار يمكنك أن تشري شارع كامل في مدينتنا ببيوته وناسه وحميره، فأبي اشتري منزلنا بخاتم ذهب أمي، وظلت أمي تطلب منه الخاتم لعشرة سنوات) وكما أنك جميل وهل تريد أن تزداد جمالا يا وسيم؟

خجل وسيم واحمر وجهه، وشعر أن طرح مبلغ كبير جداً أكبر من مخيلة كل طلاب الفصل.

يمر الوقت ولا يعود أبدا. نحن نعيش في تغيير مستمر، في تطور مستمر، مغمور في الروتين المجهد، ونرى كيف ينزلق الزمن من أيدينا دون أن نكون على علم تام به.

هكذا صار نسيم الأغا جزءا مهما في حياتنا، تعلمنا تفاصيل المقارنة، صرنا نهتم له كثيراً، يكفى أنه جرب السفر، وجرب أن يركب طائرة، أغلب من في مدينتا لم يسافر لو مرة واحدة في حياته، وإن كان محظوظاً وسافر وركب طائرة، لا يعود أبداً إلى المدينة إلا كسائح، يأتي هو وزوجته وأولاده الذي تظهر عليهم علامات السمنة والترف، من الذين مارسوا متعة السفر أخو جدّي الذي هرب من الجنود (الاعتقال) لأنه كان ينتمي لحزب مقاوم

لهم، رحل إلى مصر ومنها إلى دول الخليج، وكون عائلة كبيرة، وغابت أخباره إلا أنه كان يرسل رسالة بخيط يده لأخيه، ومع الرسالة مئة دينار أردني، كان مبلغاً وفيراً يمكن أن تصرف به شهور وتشتري كل ما يلزمك من حاجيات، جاء خلال غربته مرتين، أولها جاء هو وأولاده وكانوا يرتدون الجلاليب البيضاء بل ناصعة البياض، وأحذية جلدية بيضاء أيضا لم نراها في حياتنا، وزوجته ترتدي عباءة سوداء مطرزة بالخيوط الذهبية، وكل جزء في جسدها عليه قطعة من الذهب تلمع في وجوه نساء الجيران والعائلة..

حاولنا اللعب مع أولاده، لكنهم لا يعرفون إلا الأكل (المعلبات والسكاكر)، والنوم حتى منتصف النهار، ودخول الحمام، كانوا يكرهون المشي ولا يحبون اللعب، لكن جيوبهم مليئة بالنقود، كنا نرافقهم على الدكان فيشترون كل العصائر والحلوى الموجودة على الرفوف، وكانت سبب الزيارة الأولى ليحصلوا على الهوية الوطنية، خلال أسبوع كانت بطاقات الهوية معهم وسافروا، والمرة الثانية جاء وحده حين مرض جدّي مرضاً صعباً وكانت حالة العائلة الاقتصادية صعبة ولا يمكنها شراء الدواء له،

فجاء ومعه نقود كثيرة واشترى الدواء والأدوات الصحية لأخيه، وسافر بعد ثلاثة أيام بسبب انشغاله بمواعيد عمل في الخليج، طبعا وزع نقود وهدايا على الجميع، لكن جدّي مات، وانقطعت أخبار أخيه بتاتاً.

نسيم كان يشبههم لكن ليس بالسمنة بل كان معه نقود، لكن لم نشعر بذلك، سرعان ما ذاب بينا كالملح وصار يشاركنا كل المغامرات، يبدو أنه يريد أن يعيش مثلنا، أو كان أذكي منا ليكسبنا معه.

في الوقت الذي نسعى فيه لعيش الحاضر وصنع ذكريات جميلة، يمضي بنا الوقت الذي لا رجعة فيه، ومن هنا كم هي المرات التي تساءل فيها المرء: "أين ذهب الوقت؟ وكيف مضى؟.

الحياة حميمية في كل مدينة، كانت ولا زالت تشكل فارقًا كبيرًا في تربيتنا ونحت تفاصيلنا، حتى الشقوق والتجاعيد التي انتشرت في جلودنا هي بصمة من بصمات العيش فيها، كأنواع العطور لنا رائحتنا الخاصة جداً، فكل من عاش ولامس ذلك التكاتف والتقارب بين الناس في تلك الشوارع الثماني البسيطة بلا شك سيبدو أن لكل واحد ثمناً ووقتاً لا يمكن الاستغناء عنه.

لا يمكن أن تكتمل خارطة المدينة أو أن تعرف الجهات الأربعة دون صوت بائع المنظفات أو بائع غزل البنات، حين تنجب سيدة طفلها الجميع يعرف، وإن مات أحد الكل يغوص في الحزن أيام ولا يفتح الراديو، والنساء تؤجل وضع الكحل في عيونها.

معرفة كل منهم بجيرانهم وانصهارهم في قالب من الوحدة بحيث يصبح الكل قريبًا من الآخر رغم أن الصلة ليست قرابة نسب، ولكنها قرابة قرب تحكمه الجيرة وروح الحي الواحد، وتلاحظ هذه الروح من خلال المناسبات التي تحدث في الحي فتجد الكل يتواجد للمشاركة (الفزعة) خاصة أن المناسبات غالبًا ما كانت تقام داخل البيوت أو في الساحات المنتشرة هنا وهناك حيث تستغل هذه الساحات لذلك.

بكل بساطة ورغم تلك البساطة إلا أنك تشعر بذلك التقارب الكبير بين الناس وترابطهم حيث مساندتهم لبعضهم البعض فلا يشعر أحد بأنه غريب أو لا يتمتع بعائلة كبيرة لسبب بسيط أن جميع العوائل تقف معه فلا يشعر بذلك النقص بل يشعر بأنه قريب، كم مرة طلب

مني أبي أن أذهب لأحد رجال الجيران لتبادل الرأي حول موضوع..

هذا ما يجعل حركة الشوارع الثماني أكثر رسوخًا في الذاكرة لمن عاشها ومن لا يزال يعيشها.

بل إن بعضهم يرفض مغادرتها، رغم قدرته على الانتقال لأحياء أكثر رفاهية وتطورًا ولكنه بمجرد أن يفكر في تلك الخطوة يشعر بأنه وبهذه المغادرة سيغادر جزءًا غاليًا من حياته التي استمتع بها في أجواء من البساطة والتقارب.

لكن عدم المغادرة أو المغامرة بالتجديد هو خوف أو شيء نفسي، جاء آباؤنا وأجدادنا مجبرين إلى هنا، وكم تعبوا من الركض حول الرضا والهناء، أن يكون للعائلة بيت أربع جدران من الحجارة غير المطلية بأي لون سوى اللون الرمادي (الإسمنتي) تنام فيه، ومطبخ صغير يضخ مياهه العادمة في الشوارع، ومرحاض بباب قصير، وسقف من القرميد مرفوع على أنابيب حديد (مواسير) مفتوحة من الطرفين، ويشارك في البيت الفئران وطائر الدوري، وإن كنت محظوظاً أن يكون لك حبل غسيل خاص، تتعمد أن يكون باب بيتك من الحديد المخملي، خوفاً من ركل الجنود له في الليل، كم هو جميل حين تفتح شباكاً على

مساحة صغيرة، طوال حياتك تخطط وتجمع المال لتضيفها لبيتك، رغم أنه هدف صغير جداً لكن صعب تطبيقه في وقت ما.

أنا أشبه أيضا نسيم الأغا بالمساحة التي تلاصق بيتك، تصر على إضافتها، معظمنا حرصنا على مرافقته والحديث معه، ليس لأنه أفضل منا، ولا لأننا سيئون، لكن بدأت شيفرات التغير والتجديد تظهر علينا، حيث قلّ في المدينة ارتداء الملابس المتواترة من الأجيال السابقة، صرنا نميل للبس القبعات الحديثة والبناطيل القماش المصنوعة من الصوف الإنجليزي، والقمصان الملونة بالياقة القصيرة، لم يحافظ على الثوب المطرز ولا الجلابيب سوى كبار وعجائز المدينة.

وأحيانا يكون مرور الوقت المتصور قصيرا كدقائق وساعات وأيام وفترات طويلة من أشهر وسنوات، التي يمر بها الناس في كل المراحل العمرية.

إذ نتعجب فجأة كم لبثنا من الوقت كي ينقضي بسرعة إحساس لا يخلو من التعجب والدهشة، كالطفل متعجبا من انقضاء عطلته، وأحبة يستغربون مرور زمن على

تعارفهم، والأهل لا يشعرون بنمو أطفالهم حتى لحظة استقلالهم عنهم.

وكلها لحظات طار بها الوقت ومضى بها الزمن. ومع كل ذلك فإن الوقت لا يطير دائما؛ إذ يمكن أن يكون أحيانا وكأنه مستمر إلى الأبد لا يتحرك، كأن تمضي وقتك في مكان لا تحبه، أو تتعرف لشخص ممل فتبدو الدقائق ساعات أو حين تدخل في أزمة سير خانقة وأنت على عجلة من أمرك كي تصل لوجهتك.

حين تحدث نسيم: أنه وضع التقويم الفضي على أسنانه، ليزداد جمالاً...

وجيلنا كله أراد أن يضع تقويم فضي على كل حياته، حياتنا جميلة، لكن نريدها أجمل، في أوقات تشيخ الأشياء من حولك، حتى القطط التي كنا نلاحقها ونحن صغار خرج منها أجيال كثيرة، وغادرت السطوح، الأشجار المزروعة في نهاية الشوارع تحول إلى حطب للنار، والطلاء على الجدران بدأ يتقشر، وسكن الغبار إطارات الصور المعلقة فوق الأبواب الخشبية.

صارت حياتنا تتأرجح بين مرور سريع أو بطيء فهو نتيجة عدم الاستسلام، وكل هذه التفاعلات التي نتجت

في لحظات الجلوس تحت ظلال شجرة الكينيا ساعات صامتاً يمكن أن تسبب عدم الرضا، الندم والانزعاج ومع مرور الوقت يضيع العمر ممن يحاولون أن يلملموا شقوق الروح، وهؤلاء على الأغلب هم من لديهم ذكريات دائمة مرتبطة بفترة زمنية، وأقل إنتاجية، هم من رفضوا التغير. وأحيانا ينظرون لمرور الزمن وكأنه يتحرك ببطء كبير ولم يفعلوا شيئا لتجنب أو التقليل من المشاعر المزعجة عاطفيا مثل الملل والإحباط والعجز.

وهذه كلها ردود فعل طبيعية لمرورنا بأحكام وقوانين المدينة، ويمكن أن نحد من وتيرتها بالسعي للعيش بالحاضر، واستخدام كل الحواس والوعي المعرفي لتجربة الأيام.

وأن نتقن فن العيش على الأقل، حين تنخرط في الأحداث والفعاليات التي تؤمن بها وتفضلها، ذكر نفسك بانها ستغدو ذكريات لاحقا، فلا تفسد تلك اللحظة وتذكر تفاصيلها وكيف تشعر بها.

حين تمر بأحداث وأمور مزعجة استنزفتك، حاول أن تسيطر على عواطفك وسلوكياتك، خد نفسا عميقا مع الإبقاء على التفكير بأن هذه التجربة ستنتهي.

لا يمكن انكار أن الوقت يمضي وأن لدينا جميعا أياما معدودة، والتي يمكن أن نستغلها ونعيشها لأقصى حد.
لا يمكن أن نعيش دون ندم ولكن بنفس الوقت يمكننا أن نعيش مدركين أننا نعيش لمرة واحدة واللحظة التي فقدناها لن تعود، وفعليا "يطير الوقت بسرعة حين تقضي أوقاتا جميلة".

تخيل أنك تقف على ضفة نهر وتريد أن تصل إلى المكان الذي يقع على الضفة المقابلة، ومن ورائك مجموعة من المشجعين يحفزونك على القفز. ثم عقدت العزم وانطلقت لكنك لم تضع في الحسبان اتجاه التيار، ومهما بذلت من جهد عضلي لن تتمكن من السباحة ضد التيار. وعندما وصلت إلى الضفة المقابلة اكتشفت أن التيار دفعك بعيدا عن مقصدك.

الحياة مليئة بلحظات السعادة ولحظات الحزن لكن دائماً ما نشعر أنّ لحظات السعادة تمرّ سريعاً ولحظات الحزن تمر ببطء، في الحقيقة أنّ كل شيء في هذه الحياة مؤقت وسرعان ما يزول لكن ببعض الإيجابية يمكننا أن نتشبّث بمشاعر السعادة حتى ولو كنا نمرّ بحالة حزن شديد، ولأن الحياة تتطلب منا الكثير.

لذلك في لحظة تتوقف عن الحديث ومشاركة من حولك، تكون جالساً على كرسي خلف مكتب خشبي فوقه لوح زجاجي، أمامك باب خشبي مطلي باللون الأبيض بالقرب معلق سترتك الصوفية وترتدي معطفك الأبيض، ونافذتان من زجاج خشن، وسرير قصير من الحديد عليه غطاء أبيض مختوم بشعار (UN)، وأنت تمسك بيدك قلم ازرق وأمامك ورق أبيض لتكتب اسم الدواء للمرضى، ومعلق على رقبتك سماعة لعلاج المرضى.

هذا الشعور، التخلي عما حولك من أصوات أو أحداث ولا تهتم لمديرك في العمل، لتأخذك الذاكرة لسنوات مضت سريعاً، أسرع من التقاط الضفدع لذبابة، أسرع من هضم النشويات في الجهاز الهضمي، سريعة كنوم الأطفال بعد وجبة ساخنة...

رغم أنها كانت سريعة إلا أنها تركت أثرا داخلك، كذوبان حبات السكر في فنجان الشاي الساخن، الذكريات كحبات السكر، وأنت الفنجان، ولا يمكنك أن تتناول الشاي دون الذكريات، لا أعلم لماذا صار جسدي به قليل من الوخز الخفيف، يريد أن يجرب تجربة جديدة.

أمام مكتبك يافطة من خشب مصقول مكتوب عليه اسمك (الدكتور خالد فهمي) لأحصل على هذه الكلمة (دكتور) سافرت إلى بلاد الثلج، (الاتحاد السوفيتي) وتعلمت الطب تخصص جراحة، وعدت إلى المدينة، وعملت كثيرا في الوظائف المؤقتة، إلى أن حصلت على وظيفة براتب كبير ومغري كطبيب في عيادة وكالة غوث للاجئين.

طوال الوقت أكتب الدواء وأفحص المرضي الذين يرتادون العيادة، لأن من حق كل لاجئ الحصول على الدواء مجانياً كالتعليم، يوجد عشرة أنواع من الدواء كحد أقصى في صيدلية العيادة، [مسكنات، مضاد حيوي، أدوية للمعدة، والسعال وخافض للحراة، وأدوية للأمراض المزمنة].

وبكل صراحة هذه الأدوية لا تحتاج إلى طبيب، يمكنك أن تحفظ أنواع الأمراض الخفيفة الدائمة عندنا وتكتب الدواء، لكن فكرة الوظيفة والحصول عليها شيء مهم، وعلى حسب قول أمي (الوظيفة إذا لم تغنِك، تسترك).

مقابل غرفتي في العمل، كشك الولادة، كل لحظة يولد طفل جديد، لماذا هذا التهافت على الإنجاب رغم أننا نمشي ونقف على أرض نحن ضيوف فيها، يبدو أنه من

المغري أن تكون لاجئا، أن تمتلك البطاقة التي تحصل بها على المساعدات الغذائية صارت أعلى أمانينا الطرية.
هو حلم أبي أن أصير دكتوراً، أبي الذي يجلس في البيت هو وأمي في الطابق الأرضي وأنا أسكن في الطابق الثاني.. (طبعا أنا الرقم الثاني) إخوتي الشباب لم يقبلوا العيش معنا في بيت واحد، رغم أن أبي حين بنى بيتنا أسسه يحمل عدة طوابق على عدد أخوتي..
في بيت أبي رغم أنه أصبح من الباطون إلا أنه لوحة فنية من الماضي، مع انتهاء فصل الصيف، تبدأ أمي بتحضير مؤونة الشتاء التي تخزنها من المأكولات التي تتوافر عادةً في فصل الصيف، وخاصة الزعتر الأخضر بعد تجفيفه، إذ ما زالت العادات القديمة بدق الزعتر بواسطة مطرقة خشبية مع السماق والسمسم المحمص، كانت تأتي لنا أوراق الزعتر من جبال الشمال.
علب (مرطبنات) فيها البرغل الذي كان يتم جرشه يدوياً بواسطة الجاروشة، كما أن معظم الجيران كانوا يصنعون رب البندورة (الطماطم) في بيوتهم، إذ يتمُّ طهوه وتنشيفه على أسطح المنازل، هذه الوجبة دائما ترافقنا في فصل الشتاء مع صوت المطر وهبوب الريح وصوت الزينكو

ومزاريب الماء التي تحول الجو إلى موسيقى من الرعب ومع مواء القطط والعتمة وخطوات المارين.

يطحنون الفلفل الحار الأحمر، ثم يشمّسونه لأيام عدة، قبل خلطه بالزيت وحفظه في مرطبان (وعاء) زجاجي، أمي كانت تقوم بتجفيف الملوخية الخضراء، بتعليقها على حبال حتى تيبس، بالإضافة إلى ورق العنب الأخضر الذي يتم تخليله في أوعية، لنخرجها في الأشهر التي لا تكون أوراق العنب فيها قد نضجت.

أما مخلل الزيتون الأخضر الذي يتم جمعه في موسمه يتم شرائه من تجار الزيتون، لا تخلو وجبة في بيت أبي دون وضع صحن كبير منه.

[بعد الانتهاء من أكله نجمع النوى ونصير ننحتها بحجر خشن حتى نحدث ثقباً في كل طرف من طرفيها، ومن ثم نحضر خيطاً ونصنع عقداً من نوى الزيتون، أو أساور، هذه الأشياء تعلمناها من هدايا الأسرى في السجون، حين كانوا يرسلون تذكارات لأهاليهم من المعتقلات، كانوا يرسلوا أشكالاً فنية، من نوى الزيتون وأعواد الثقاب وقطع من الكرتون، وبقايا أصابع معجون الأسنان].

ومن ألذ الأشياء التي تجدها التين والعنب المجففان، والمربيات من اليقطين ودبس العنب، والمخللات والمقدوس المصنوع من الباذنجان.

[في موسم العنب كل الأهالي ينتظرون عنب الخليل، يكون وافراً في الأسواق، وكانوا يشترونه بكميات كبيرة، ليصنعوا (العنبية) وهي طهو حبات العنب مع السكر وقليل من القرفة].

وتعتبر أقراص "الكشك"، أيضاً، من المهمات الصعبة التي لا تنساها أمي في التخزين في أكياس من الخيش تعلقها في أي مسمار في الجدران.

تجد الضوء الأصفر (اللمبة في كل غرفة)، كما تجد خلف كل باب من أبواب الغرف أشياء معلقة منها، (عقد البامية) كانت أمي تشتري البامية بكميات كبيرة، وتأتي بخيط وتربطها معا بشكل دائري تشبه عقد الأميرات في زمن العمالقة.

تجد معلبات الزجاج بها أوراق الملوخية الناشفة، [تستخدمها أمي في نوع طبيخ البيسارة مع مجروش الفول الأبيض من أكلات الشتاء] الحبوب كالفاصوليا واللوبياء تجده على كل رفرف من رفوف مطبخ أمي.

أسفل بيت الدرج، تجد باقة من الثوم وأرواقها الخضراء، وتجد دلاء مملوءه بالرمل الأصفر الجاف مدفون بها حبات من البطاطا.

كان أبي يخزن أغصان من الشجر الناشف وبعض علب من الكرتون، وكان يجمع كل الدفاتر المستهلكة من الدراسة، والكتب الممزقة والمجلات، ويخرجها في فصل الشتاء ويختار يوم يكون الجو ماطرا، يشعل ناراً في كانون حديد قديم، ويحضر قطعة حديد مبسطة، ويضع على النار براد شاي نحاسي لو رآه خبير من الأثار لاشتراه بمبلغٍ كبيرٍ ووضعه في متحف اللوفر الفرنسي.. وقتها تقوم أمي بعجين الدقيق، ويصنعون خبزاً (صاج) في دقائق، تنفتح شهيتك للطعام، مع قليل من الزعتر أو الدقة الحراقة، تأكل عشرات الأرغفة دون شعور، حتى ينزل عليك النعاس، كأنك انتهيت لتو من حرب ضروس، تأخذ استراحة مقاتل، بعد التهام الأرغفة وتنظيف الصحون.

مازلت أمي تحتفظ بأول خزانة اشتراها أبي من سوق الخردة، [خشب إيطالي مطلي بالأصفر الخفيف، مزركشة بأشكال فنية، محفورة بأشكال من الورد والسنابل على محيطها البني الغامق، قصيرة لا تتعدى المتر والنصف،

لها رفوف داخلية قوية، واسعة لأنها كانت تستوعب كل ملابسنا وحتى ملا بس الشتاء والأحذية المطاطية الطويلة التي كنا نستلمها من مركز التوزيع لتحمي أقدامنا من مياه المطر].

[E]

في بداية تعليمي في الجامعة تخصص طب عام، كان أبي يعمل في مهنة البلاط داخل الأرضي المحتلة، وكان يحصل على أجرة كبيرة على كل متر عمل، وحين انتهيت من الثانوية العامة، عرض عليّ أن أدرس الطب، فوافقت بسرعة أمل أن أخرج من شارعنا إلى شوارع أكبر وأكثر تنظيماً، وبعد عشرة أعوام عدت حاملا الشهادة، لكن لم يعلق بذاكرتي أي شيء من تلك البلاد (بلاد الثلج) سوى البرد، والجدران السميكة، وسرعة الحياة هناك.

كان الأمر فيه العديد من الصعوبات في الدراسة، أن تكون وحيدًا في بلد لا تعرف فيها أحد أمر يبدو موحشًا، تسبب في بعض الخوف والرهبة لديّ، ولكن مع الطموح والرغبة في الدراسة، واعتبار أن وجودك في هذا المجتمع الجديد جزء من تحقيق هدفك وطموحك الذي جئت من أجله، يتغير الأمر ويصعب له متعة الاستكشاف والاجتياز.

كل الذي عليك إتقانه حفظ ملامح وجوه الناس وتعبيرهم في حالات الحزن والسعادة مع قليل من اللغة الروسية

التي تملكها في بداية الأمر، لكن في شوارعنا القديمة الوجوه تشبه بعض، لأن لحظات الحزن والسعادة سريعة ولا تترك أثرا عندنا.

تعلمت أن اعتمد على نفسي بصورة أكبر، وتعلّمت الحرص في ردود الأفعال وقلة الاندفاع، ونجحت أن اتعايش في هذا المجتمع الجديد عليّ، كما لو أنني واحداً منهم.

فالناس هنا في مدينة **لينينغراد**، [سان بطرسبورغ] كأنهم عرائس من بلاستيك، يتحركون بسرعة ويختفون دون آثر، يمكنك أن تعرف الرجال من ستراتهم التي لا تتغير، وقبعاتهم الصوفية غريبة الأشكال، أما نساؤهم فبيض وأكثر جمالاً، دون الاهتمام بتسريح شعرهن الأشقر، تضع أي خيط تربط به خصلات شعرها وتمضي للعمل أو للدراسة، والشيء الشبيه الذي لاحظته أنهم ينامون بأي ملابس لا يهتمون بملابس النوم، مثلنا كنا ننام بالزي المدرسي، وكنا أيضاً نستخدمه للعب بالكرة، وكنا نركض ونرمي الحجارة على الجنود بنفس الزي.

لابد أن تكون قادرًا على التفاعل وتخطى الصعوبات وأن تكون مستعدًا للتغيير لإن الناجح في لينينغراد لا يعتمد

على الأب أو الأم ولا على فزعة الجيران في المناسبات، عليك أن تحافظ على صحتك ولا تمرض أبداً...

[المرض في مديتنا نزهة بل متعة، في يوم مرضت بالحمى الشوكية مما أدي لمكوثي في المشفى عدة أيام، كانت خالاتي وأخوالي وعماتي وأعمامي والعائلة كلها والجيران وزملاء الصف، ورفيقات أمي بالعتبات زاروني بالمشفى، وكلهم أحضروا لي الطعام والشراب والهدايا، تشعر أنك ملك زمانك، من كثر الأشياء من حولك، لكن في آخر يوم لي بالمشفى تختفي الأشياء من حولك وتذهب للبيت، ولا تجد لو حبة تفاح واحدة، لأن إخوتك وزعوا الهدايا والطعام بينهم].

ليس بالضرورة أن يكّون لك صداقات في السنة الأولى في الدراسة، فالصداقة جزءً من ارتياح، من الضروري أن تستغرق بعض الوقت عند تكوين الصدقات، وأن تمنح دراستك الاهتمام الأول، وأن تتواجد في بيئة أكثر تفاعلًا، وستجد أن الصدقات تأتي بالتدريج، لكن هذا الابتعاد عن الناس في لينينغراد لأن أباك كان يوصي [دير بالك يسرقوا مصريك، أوع تقعد مع واحد غريب، أوعك البنات، البنات

طريقهن شوك] وصيته كانت تطير حول رأسي كنقار الخشب.

(أن تكون لك صديقة أنثى شيء سهل جداً بل في متناول اليد، كدواء وكالة الغوث مجاني، كأكياس الطحين، والحليب المجفف، أما أن تحصل على اهتمام أي فتاة من شوارعنا القديمة، عليك أن تكون شاعراً لتكتب رسالة عميقة بكلمات العطف والحب، عليك أيضا أن تكون هنداماً في الثياب، وجسدك فارع الطول، وتجيد تسريح شعرك على جنب، وأن تضع عشرات الخطط كيف تمر من أمامها وتلقى ورقة (رسالة)، وعليك تتعلم المشي خلفها وأنت ترتدي طاقية الجن الخفي.. أو تكون خفيفاً كالقط تقفز من مكان إلى مكان، لتعرف عنوان بيتها، لتمر في الليل من تحت الشبابيك، ولو كنت سيء الحظ، فيراك أحد وأنت ترمي بالورقة، تكون قد وقعت في مشكلة لا تحلّ إلا بالمخاتير وتعاقب من ناظر المدرسة)

لأكون صريحا أكثر لم يغرِني شيء هناك، ظلت ذاكرتي عالقة بالمدرسة وشوارعها الثمانية.

لأن الحياة في مدينتا فتحت أبوابها كثيراً للعمل والتجارة والوظائف الحكومية، وتحولت بيوتنا القرميد إلى بيوت

من الباطون المسلح، صار البيوت لها أبواب عالية وشرفات وأحبال غسيل خاصة في كل بيت، وصارت أمام كل بيت ضوء يساعد المارة في الشوارع.

بعد الدوام، أجلس ساعات في الطابق الأرضي، لأن أمي مازلت تحافظ على أشيائنا حين كنا صغار، من قبعات وسترات، ودفاتر الرسم، ودفاتر ثمرة القراءة، [دفتر ثمرة القراءة، كان أكثر الدفاتر قرباً لقلوبنا، كنت نكتب أبيات من شعر محمود درويش ونزار قباني، ونقص صورا من الجرائد والمجلات ونلصقها في الدفتر، كنا أيضا نضع العملة المعدنية القديمة ونرسمها عن طريق الشخبطة، كنا نقضي ساعات مع هذا الدفتر].

أخواتي البنات الأربع، يأتين لزيارة أبي وأمي مع عائلاتهن، أنا متيم بأن أسمع قصصهن وتفاصيل حياتهن من كل شيء، حتى أحب أن أسمع المشاكل مع أزواجهن أو مع الجارات.

جيوبي مليئة بحبوب الدواء، فأخواتي البنات يشكون كثيراً، وأنا طبيب، وقبل أن تقول لي إحداهن مرحباً، تقول لي: أن أشكي من وجع في رأسي أو وجع في ظهري، وقتها

أخرج أي حبة دواء وأعطيها إياها، بعد خمس دقائق تقول لي شكراً.
وتبقى ساعة أو ساعتين تحكي لي عن جاراتها وعن السوق وعن زوجها، وعن ولدها الذي رسب في الامتحان، أنا أسمع لها بكل تركيز لعلها تذكر لي أي اسم من أسماء أصدقائي القدامى، رفقاء المدرسة، أو أي رفيق من سكان أذرع الإخطبوط.

عندماً تعود بذاكرتك زمنياً نحو أصدقاء وأحداث قد مرّت وطويت صفحاتها، سترى أن ذاكرتك (الطويلة المدى) قد أخرجت إليك فقط الأصدقاء، الذين جاوروك مقاعد الدراسة، أو بادلتهم النظرات داخل أسوار المدرسة.
وحتى في استعراضك لمشاهد ماضيك، تراك تذهب إلى خانة المدرسة، لما فيها من بطولات ومفارقات اختلطت ما بين الطفولة البريئة والمراهقة الجادة، التي خلقت فرقاً في حينها، مواقف لا تنسى، تلك التي تخزّن بالذاكرة، وحينما يستذكرها في هذه اللحظة تبتسم، وكأنه يعاود الرجوع إلى كل ما في تلك المرحلة من براءة وطفولة جميلة.

وأوقات فرح ومرح، وربما غضب ومشاكسات، ولكنها تبعث على البهجة بتفاصيلها. ذكريات المدرسة هي من أجمل اللحظات التي تمرّ على الإنسان، حيث يدرك فيها جمال طفولته وفوضى مراهقة، لتتكون تلك "الأنا" بالشكل المناسب.

حاول أن تستجمع ذكرياتك المفضلة سترى أنك لن تقوى على مغادرة أحداثها وكل الوجوه التي رافقتها تلاحقك، تشعر بالحنين إليها، وكثير من البشر تسمع منهم أماني العودة الى الوراء زمنياً، للتوقف مجدداً في محطة من عمرك كنت تقف على أبواب القرار والمغامرة والتقليد والتفكير واستخدام كل مهاراتك للحفاظ على مكانتك بين هؤلاء الموازين لك في العمر والطول والزي المدرسي والحالة الاقتصادية وحتى في نفس المدينة.

وذلك المقعد الخشبي الذي يكفي لاثنين، ولكن في أوقات يأتي طلاب ثلاثة يتشاركون المقعد، وسور المدرسة العالي الذي كنا نتسلق ونقفز عليه دون تعب، وكل الحيل التي نستخدمها للهروب من العقاب حين يطلب المعلم الواجب البيتي.

حتى ساحة المدرسة والمقصف المركون بعيداً، الحمامات الرديئة التي كنا نتردد عليها في اليوم الدراسي خمس مرات، والوقوف أمام غرفة الناظر لتحصل على العقاب أو إذن المغادرة، هذه اللحظات التي لا تزال تحمل عبق الماضي وجماله.

وأصعب الأوقات حين تصاب بالحمى، ويصر أبوك على ذهابك للمدرسة تجلس في الصف نصف واعي ونصف مغمى عليك، وحين تأتي أمك لتأخذك إلى الطبيب وتراها من بعيد وحين تدخل الفصل وتحكي مع المعلم أنها تريد اصطحابك معها، تشعر بأن قمراً دخل الغرفة، بشالها الأبيض، وثوبها المطرز بالحرير الأحمر، وكانت تحمل بيدها سلة بلاستيكية لتحمل بها الحاجيات التي ستشتريها من السوق.

[أمام كل مركز صحي أو مسجد في المدينة تجد سوق به خضروات وبعض الفواكه وملابس داخلية، وصحون من الفخار، وأحذية بلاستيكية، وعلب السردين والشمع الأبيض...] وحين يحصل الناس على خدمتهم من المركز الصحي أو ينتهون من الصلاة يتسوقون.

كنا نخاف الذهاب للعلاج، حتى لا توصف لنا حقن البنسلين، حين تغرز في جلدك الخلفي تصاب بشلل مؤقت، تصير أعرجاً ودموعك لا تتوقف من الوجع..

كانوا أربعين طالباً في الصف الدراسي، أنا أذكر أكثر من نصف العدد من أسماء وأحداث ووجوه والباقي لم أعد أذكر أي منهم، لأن النصف الآخر من الصف يكون اسمه محمد أو أحمد أو محمود، فتتداخل الصفات في بعضها البعض، ولا يكون لهم ميزة أو حدث يترك عندك أثراً، وكل شغفي الآن في هذه اللحظات أن أراهم مرة أخرى.

عصراً، كانت الشمس تنسحب رويداً، رويداً، النساء بدأت تلملم حكاياتها والثرثرة عن بعضها البعض، وبعد أن تأكدن أن أطراف أثوابهن قد جفت من البلل، وحرارة الشمس دخلت بين أصابعهن، وزادت حرارة ركبهن، [أهم علاج للركب في شارعنا الجلوس تحت أشعة الشمس، لتخرج الرطوبة]

بسرعة يجمعن الصواني الكبيرة التي فرشنها تحت الأشعة لتجفيف أوراق الملوخية، وتنقية حبات العدس من العوالق، وقتها تنشط الفتيات لجمع الملابس عن أحبال الغسيل.

بعض الرجال قد أخذ غفوة، ربما أن البرد والمطر طوال الليل أفقده ساعات من النوم، ومنهم من كان يجفف أوراق التبغ، لأن التبغ الرطب لا يشتعل بسرعة، ويكون مذاقه سيء نوعاً ما.

قبل أن يفرغ الشارع المشمس، سمعنا صوت إطلاق نار كثيفا وقويا وعاليا، من ناحية الثكنة العسكرية، التي تقع غرب المدينة، في هذه اللحظة بقي الكل منخفض الرأس ويتحرك كالقطط بهدوء وقريب جداً من الأرض خوفاً من أن يصاب برصاصة طائشة..

بدأ حملة البنادق بالتحرك بين الشوارع، الناس تدخل البيوت وتغلقها جيداً، بعض الشباب العزل ينطلقون إلى طرف الشارع، ليحصلوا على الأخبار (عن سبب إطلاق النار)، يسرع الرجال في فتح الراديو على موجة محلية ليفسر ما يحدث كخبر عاجل..

قبل هذا كله أيضا كان الدكتور خالد فهمي يجلس مع أمه وأبيه عند عتبة البيت، ليحصلوا على قسط من حرارة الشمس، لأن سطح بيت الدرج كان مثقوباً من أثر سقوط حجر عليه، فدخلت مياه المطر عليهم، فكانت الليلة السابقة باردة بطعم الماء، وفي الصباح أحضر أبوه كمية

من النايلون ليغطي مكان الثقوب، ومع صوت الرصاص دخلوا البيت.

لكن الدكتور خالد ذهب وجهز نفسه [ملابس وأدوات طبية]، لأن في هذه الحالات يتم استدعاؤه (حالة طوارئ) هو وزملاؤه الأطباء للتعامل مع المصابين، بعد إطلاق الرصاص والمواجهات.

وقبل أن يجهز نفسه كانت سيارة الصحة تقف أمام البيت، تطلبه في حالة سريعة، ركب معهم، وفي الطريق سأل السائق: ما سبب إطلاق النار الكثيف الذي وصل صوته إلى كل المدينة؟

رد السائق: كما علمنا من بعض المصابين أن مجموعة من الشباب فجروا المنطاد الجوي.. [المنطاد الجوي هو عبارة عن طائرة كبيرة من البلاستيك المقوى تطلق من التكنة العسكرية إلى مسافة عالية في السماء بها عدسات مراقبة، وكاميرات تصوير].

شهق الدكتور شهقة قوية استغراباً بهذا العمل الغريب الشجاع.. ردد في داخله: يبدو أن من أقدم على تفجير المنطاد شاب قوي وشجاع وذكي أن يصل إلى هذا الحدّ من التفكير.

أقل من دقائق وصلت السيارة إلى مدخل المشفى (الاستقبال) يوجد زحمة على المدخل من رجال ونساء وأطفال، وبعض الملثمين وحملة البنادق، والأطباء ينتشرون في المكان يعالجون المصابين، والدماء على الأرض وبعض الثياب الممزقة والشاش الأبيض في كل مكان كأنك في حقل قطن لكن باللون الأحمر.

صرخ أحد الممرضين هل يوجد طبيب هنا؟ يوجد حالة صعبة تنزف دماء كثيرة من الفخذ!! انتبه الدكتور فهمي للصراخ، انطلق ناحية الحالة، كان شاباً والدماء تغطي وجه، ولا تظهر ملامحه، وفخذه تنزف دماء كثيرة، تدخل بسرعة، ومزق البنطال، فلاحظ أن هناك إصابة مباشرة وقطع في الشريان الرئيسي للفخذ، وعليه التدخل بسرعة لوقف النزيف قبل حدوث مشاكل أكبر، طلب وقتها مخدر قوي، وغرس يده في الجرح وأمسك الشريان وربطه وأوقف النزيف بعد ساعة من العمل الشاق، وقتها فقد الشاب الوعي ووجه تحول إلى اللون الأصفر..

سأل عن اسم هذا المصاب، لكن الممرض لم يتكلم وظلّ ساكتاً، حتى دخل أحد الملثمين وقال للدكتور: علينا أخذه إلى مكان آمن لأن الجنود لو علموا أنه موجود سوف يتم

اعتقاله، فهو مطلوب منذ زمن ومطارد للجنود، هذا رائد حسين الملقب [الديناصور].

رائد حسين، هذا صديقي في الدراسة الإعدادية، مصادفة رائعة أن أقابله، لكن حالته لا تسمح بالنقل الآن، حتى لا ينزف الجرح مرة أخرى. تحدث الدكتور.

الملثم: لكن علينا نقله الأن هو أخطر شخصية عندنا، علينا نقله؟

سرح الدكتور وردد في نفسه هذا الذي كان يرتعب من مدرس الرياضيات هشام حرب ويفقد الوعي من سؤال في جدول الضرب.

لحظات وكان الجنود أمام الباب، خرج له الدكتور لإقناعهم أنه من المستحيل أن يأخذوا أحد من المصابين فهذا منافي للقيم الإنسانية، لكن الجنود دفعوه ودخلوا وصاروا يفتشون كل سرير وكل مريض، التفت الدكتور ناحية صديقه رائد ولم يجده على السرير.. غادر الجنود دون أن يعتقلوا أحدا..

بعد لحظات خرج الملثم والممرض وهم يحملون رائد وقد اخفوه في غرفة الأطباء، وطلب من الدكتور خالد: أن

يأخذ صديقه إلى مكان آمن، وبعد لحظات من التفكير قرر أن يأخذه إلى بيته، فهو أكثر أماناً...

بعد يوم طويل من النوم والألم والهلوسات استيقظ رائد حسين من نومه، فنظر حوله فوجد أنه في مكان غريب، حاول أن ينهض من فراشه فلم يقدر، سأل: أين أنا؟

– رد الدكتور: مرحبا صديقي رائد، أنت الآن في بيتي، يبدو أنك لا تتذكرني، أنا من أصدقائك القدامى، منذ كنا في المدرسة الإعدادية، أنا خالد فهمي، أنا من عملت لك العملية، كانت إصابتك صعبة، لكن الحمد لله نجوت من بتر قدمك.

– شكرا يا صديقي، يا الله أنا لم أراك منذ أن ذهبت لدراسة الطب في روسيا، لمحتك مرة في سيارة، حاولت أن ألحق بك لأسلم عليك قبل أيام لكن كانت السيارة سريعة..

– لنا حوار طويل، لكن الأن عليك النوم ولا تفكر إلا في الشفاء، أمي سوف تحضر لك الطعام، صنعت لك الدجاج البلدي مع الأرز.

المصادفة شيء رائع بل تتحكم في تفاصيلنا، لو بقيت أخطط عشرات السنين حتى أصادف أين أنا من أصدقائي لفشلت، ربما هذه المصادفة تكون بداية خير وأقابل كل

واحد منهم، [ينظر الدكتور إلى رائد ويتحدث معهم وهو نائم بعد الوجبة الدسمة].

بعد أيام صار رائد وقادراً على الحركة والمشي، لكنه لم يستطع أن يغادر بيت الدكتور خالد، لأنه خائف من الجنود الذين انتشروا في كل مكان يبحثون عنه، هو من قام بتفجير المنطاد، مع مجموعة من الشباب.

وكل يوم بعد الدوام يجلس الدكتور معه لساعات، يتحدثون عن ذكريات المدرسة والأولاد والمدرسين ويضحكون لساعات طويلة.

– أريد أن أسألك عن رفيقك في المقعد الخشبي رشاد ماضي، الذي كان يغمى عليه خوفاً من المدرس هشام حرب.

– ضحك رائد بصوت عالي، لأنه تذكر الموقف، مازال ماجد صديقي ورفيق دربي، ودائما نلتقي، هو محامي ويرتدي بدلات سوداء وربطات عنق حمراء ويدافع عن حقوق العمال الذين فقدوا عملهم، أو أصيبوا في العمل، ويقوم بتجميع العمال ويحكي معهم عن حقوقهم. ومعه حقيبة كبيرة يوجد بها عشرات الكتب، أذكر مرة تركها معي وفتحتها ووجدت بها عناوين عن الرأسمالية،

والاشتراكية، وروايات لفيكتور هوجو، ومكسيم غوركي، ونجيب محفوظ، فحملتها وبعد أيام جاء وأخذها مني.

– الآن عرفت لماذا يرتدي ربطة عنق حمراء!! أنا عندي فكرة، ما هو رأيك أن نجتمع مرة ثانية، إن عندي ورقة بكل أسمائهم، وعندي حنين أن أراهم ونجتمع ولو ليوم واحد.

– هذا صعب يا صديقي، رغم أننا نعيش في مساحة صغيرة، لكن كل شارع من شوارعنا عبارة عن قارة كبيرة.

– نحاول، أنا عندي إحساس لو تقابلنا سوف نعيش لحظات جميلة حين نتذكر الماضي، وكيف كنا صغاراً.

– يمكنني أن أخدمك في فكرتك، صديقنا رشاد ماضي له مكتب محاماة مقابل مكتب العمل، يمكنك أن تذهب إليه.

– بالفعل أنا سأذهب إليه وأخبره بفكرتي، لكن كيف أقابلك بعد الآن لأخبرك عن ميعاد اللقاء الكبير بعد أن اجمعهم.

– اللقاء الكبير، اسم جميل، حين تريدني، عليك سؤال أي أحد من حملة البنادق أين أجد الديناصور، سوف يدلك بسهولة.

– سوف نلتقي يا صديقي بالقريب العاجل.

جاءت مجموعة من الملثمين بسيارة بيجو بيضاء، واخذو رائد إلى مكان لا نعلم عنوانه، وترك رصاصة في معطف الدكتور الأبيض مكتوب عليها [سوف نلتقي، في اللقاء الكبير، الديناصور]

وضع الدكتور الورقة والرصاصة في جيبه، ذاهباً إلى رشاد ماضي، كان بعض الرجال والنساء يقفون على باب مكتبه يحملون أوراق الهوية الوطنية، وصورا من شهادات ميلاد، وصورا من تصاريح العمل، بعد سؤالهم ما تفعلون بهذه الأوراق، علم أنهم جاؤوا ليقدموا لقضية استحقاق أجرة عمل، حاول أن يدخل المكتب لكنه لم يقدر، انتظر لمدة ساعة، حتى انصرف الجميع، دخل فوجد رشاد لا يكاد يظهر من أكوام الأوراق على المكتب.

– مرحبا أستاذ رشاد ماضي

– أهلا وسهلا ماذا تريد؟

– أريد أن تعود لعشرين سنة إلى الوراء، لنجتمع ليوم واحد فقط

(رفع رشاد رأسه من بين كومة الأوراق، وحين دقق في الصوت والوجه الذي يكلمه)

– أهلا يا دكتور خالد فهمي.

– يبدو أنك عرفتي بدون مقدمات.

– أنت مازلت تحتفظ بوجهك القديم، وجه مدرسة الإعدادية، تفضل بالجلوس.

– جئت لك لأطرح عليك فكرة أن نتجمع مرة أخرى، ونعيد ذكريات المدرسة!

– فكرة جميلة، رغم أنها لا تروق لي!

– كيف لا تروق لك.

– الزمن يا صديقي يتغير وأصبح الوقت مهما، وتعلمت في مهنة المحاماة أنك حين تقدم على شيء لا بد أن تحسب مدي الربح والخسارة، وهل قضية أن تعيد الذكريات رابحة أم خاسرة.

– لماذا تحولها إلى قضية وربح وخسارة، كان صديقك رائد حسين عندنا في البيت، بعد أن أصيب بحرج في قدمه، أنا عالجته، وأجلسته في بيتنا، خوفاً من الجنود.

– صديقي رائد يضيع الوقت، لكن كيف هو الآن، أعلم أنه اختفى مرة أخرى، على فكرة، سرق مني كتاباً ولم يعده، سرق كتاب البؤساء.

– لكنه أخبرني أنه أعاد كل كتبك، وقبل أن يغادر بيتي وضع ورقة ورصاصة في جيبي، (اللقاء الكبير).

– رغم أن صديقي رائد أيامه معدودة في هذه المدينة، لكنه يحب الحياة، وبدأت علامات التغير عنده للأفضل منذ أن كان يسمع لنسيم الأغا، فكان مهتماً بالتقويم الفضي على أسنانه، يبدو أنه أراد أن يقوم نفسه فاختار طريقاً قصيرة في الحياة، لكنه سوف يترك أثر مهم في هذه المدينة.

– وأنت يا صديقي رشاد يبدو أنك تأثرت بالتقويم الفضي، والآن تعيش حياة أفضل من لحظات الإغماء التي كنت تمارسها في حصة الرياضيات.

– لا أخفيك سراً، كلنا تغيرنا ونسيم هو بداية الشعلة عندنا، من وقتها ونحن نحاول خلع أثواب الظلّ من فوق أكتافنا. على فكرة يا دكتور أبي وأمي يترددان عندكم على عيادة وكالة الغوث، لأنهما من مرضى الضغط والسكري، ويعطونهم دواءً مجانياً بكميات كبيرة، لكن لا تظهر عليهم علامات الشفاء، يبدو أن الدواء المجاني منزوع الفاعلية.

– قبل أن أغادر وأتركك لعملك في قضايا العمال، هل أنت موافق على اللقاء الكبير؟

– نعم أوافق، وخذ هده الميدالية مع الرصاصة التي أعطاك إياه رائد!

[الميدالية كانت فضية اللون، مكتوب عليها حقي في الوطن، معلقة بسلسال جميل، حملها الدكتور وغادر المكتب، بعد أن أخذ عهداً من رشاد باللقاء، لكن ظلّ حيراناً أين يذهب ليجد الآخرين]

[F]

بعد شهر ماطر غزير، ينتشر نبات الخبيزة بأوراقه الخضراء على جانبي الطرق الرملية والحمصيص الذي ينبث على أطراف السوافي (كثبان الرمال الصفراء) المحيطة بالمدينة، ينشط الناس بجمعها وطبخها بطرق مختلفة مع خبز محمص وزيت زيتون وفلفل أحمر جاف... [الخبيزة والحمصيص تنبت بدون زراعة، لا يعلم أحد كيف تنبت، لكن يعرفون وقت حصادها، وكأن الملائكة تزرعها قبل موسم المطر].

في هذا الوقت تنشط القطط وينشط المواء والتزاوج، وتبدأ الطيور (الحمام) بالخروج من الأقفاص عن أسطح المنازل، لتحصل على أشعة الشمس، على الأرض تشاهد عصفور الدوري وهو يقفز من مكان إلى مكان، بعض الأطفال يجهزون الفخاخ ليصطادوا طيور الربيع [الكركز، والخضر، والحسون البلدي].

بعض الشباب يأتي بشبكة مثبتة على إطار خشبي، ويأخذ معه عصفوراً (الحريك) إلى مناطق مفتوحة ليصطاد العصافير ويبيعها على أبواب المدارس.

أبي وامي من محبي تربية الطيور، وخاصة أبي، خبير في حياتها من علاج وأطعمة وأنواع، لكن لم يبق لهما إلا قفص للحمام فوق البيت، فطلب مني أبي بعد الدوام الوظيفي أن أحضر أعلاف للحمام من السوق القديم، (سوق الحبوب) هو عبارة عن دكانين خلف سور القلعة، قصيري الأبواب، بهما كل أنواع الأعلاف والحبوب، حين تمشي متنقلاً من بين الدكاكين، تجد شكلها جميلا، تحفه معمارية من الجدران القديمة والأبواب الخشبية، وحتى أن أصحابها (الباعة) يرتدون ثياب تراثية وطرابيش وقت العمل، تشعر أن هذا السوق قطعة من التاريخ القديم تكفى رائحته وشوارعه الضيقة، بما في ذلك الحمالون الذين يحملون الأكياس الكبيرة من الدقيق والسكر والملح والبهارات والذرة الصفراء والشعير والقمح وحبوب القهوة البرازيلية.

طبعاً ذهبت للسوق واشتريت طعاماً للحمام، وأنا أتجول تعمد أحد الشباب أن يرطم كتفه بكتفي، وقتها غضبت منه، لكنه كان يضحك، هذه الابتسامة والجسد أعرفهما، أنه بيوض الشجاع، عانقته، فعانقني بقوة، انتبهت بأن عين من عيونه بها مشكلة.

– أين أنت يا بيوض

– أنا في المكان يا دكتور خالد، لم أغادر المدينة، لم نراك من زمن، الأن أنت دكتور وهذا شيء رائع، كم غبت عنا؟

– حوالي عشرة سنوات، لكن طيلة الوقت وأنا أفكر بكم بكل أصدقائي القدامى، ما حل بعينك؟

– أنا فقدت عيني، قبل سنوات من رصاصة مطاطية من أحد الجنود، واعتقلت خمس سنوات بعد ذلك، لكن الحمد لله الأن أنا بخير.

– وماذا تعمل الآن؟

– أنا أعمل صياد سمك مع صديقنا عماد طربي

– معقول ما تقول، هل تقابل عماد، هذه فرصة كبيرة، أنا أراه أنا مشتاق له ولقصصه ومغامراته، هل مازال حكواتي.

– هو الآن أجمل بكثير وعنده مركب كبير وأعمل معه في الصيد وهذا المساء سوف نركب البحر ونغيب مدة يوم لنرمي الشباك لنصطاد هذا موسم مهم، فالأسماك تكون على السطح قريبة من أشعة الشمس، ما هو رأيك أن تجرب وتأتي معنا، لتقضي ليلة على المركب، طوال

الليل عماد لا يسكت من قص القصص والحكايات والنكات والغناء.

– موافق أن أذهب معكم، لكن أنا لا أجيد السباحة، ولا الصيد

– لا تخف عماد سباحاً ماهراً وأنا أيضا تعلمت منه كل شيء، سوف نشوي لك أول سمكة كبيرة نصطادها، إذا رغبت في مرافقتنا انتظرني عند المفترق عصرا، لا تنسى أن تلبس ثياب ثقيلة الجو في البحر بارد جداً.

– هل تذكر يا بيوض عندنا كنت تركب على الدبابة وترقص وتلوح لنا بيدك!

– أذكر كانت لحظات ممتعة، لكنها أفقدتني عيني، الجندي القناص حفظ ملامحي جيداً وكانت مهمته أن يعاقبني، وأكثر من مرة حاول أن يقتلني بالرصاص، لكن كنت أفلت منه، لكن نجح في مرة وأطلق على عيني رصاصة مطاطية، فأغمى عليّ واعتقلني وطبيب المعتقل لم يقدر على علاجي فخلعها، وأعمل الأن صياد سمك، اعتبرها استراحة مقاتل.

– صديقي بيوض، أنا قابلت رائد حسين، ورشاد ماضي، واتفقنا أن نجتمع في لقاء كبير..

– الديناصور والمحامي، هل قابلتهم؟

– يبدو أنك تقابلهم، والدليل كلمة الديناصور.

– المدينة صغيرة يا صديقي، لا تنسى عصرا، انتظرني عند المفرق، سوف نكمل حديثنا على سطح المركب مع عماد؟

لا أعلم ودون تفكير انتظرت بيوض عند المفترق ولم يمضِ سوى دقائق وإلا كان يركب على كارة [عربة] حصان وعليها بعض أدوات للصيد، فركبت معه، وبعد دقائق من ركض الحصان ناحية البحر وصلنا، وقتها لم يعلم عماد بمشاركتي، لكن حين رآني قفز من الفرح والسعادة، وقبل أن أتكلم، قال والله حلمت بك الليلة الماضية: أنك تحمل حقنة كبيرة وتلحق بي في الشوارع وأنا كنت عارياً وأنت تصر على حقني بها.

لم نمسك نفسنا من الضحك حتى قطعنا النفس، هذا هو عماد صاحب النكت والقصص، كان يرتدي ملابس صيد، تشعر أنك أمام صياد كبير ذي هيبة، وبعد أن سلم عليّ أشار لنا وللعمال ركوب المراكب وكان هو في المقدمة.

مع غروب الشمس، تولى عماد دفة القيادة في قاربه المتهالك، منطلقاً من ميناء الصيادين في رحلة صيد ليلية قبالة القطاع الساحلي، أنا اجلس بكل هدوء أراقب كيف سننجو من الموج.

شعرت بأن هذه (الليلة) المهمة محفوفة بالمخاطر. يتشبّث العمال وبيوض جميعهم بقضبان معدنية صدئة، ويجهز بعضهم الشباك للصيد.

تقدّم المركب نحو الغرب في عرض البحر رغم ارتفاع الأمواج وهو يجر وراءه خمسة مراكب صغيرة. في الأفق، تتلاشى الشمس ويتلألأ القمر في السماء.

قرابة السابعة مساء، يستقر القارب على بعد نحو ثلاثة أميال من الشاطئ وبدأ عماد بإعطاء تعليماته "اتركوا ثلاثة قوارب هنا، هيا، هيا " قلبي بدأ يرتجف لأن كل ما حولنا ماء.

بينما تتوهّج من بعيد أضواء مدينتنا، يقفز بعض الصيادين كالضفادع نحو ثلاثة قوارب يوقفونها على مسافات متفاوتة في عرض البحر، ويتولى أحدهم ربط القوارب بمولد كهربائي لإنارة مجموعة مصابيح مثبتة عليها، فتبدو كجزيرة أضواء الهدف منها جذب الأسماك.

بعد إتمام المهمة ورمي الشباك يعودون إلى القارب، وبدأ عماد يشكو همّه اليومي وخوفه من ألا يحالفه الحظ بصيد كميات تكفي لتغطية تكاليف الوقود اللازم لتشغيل القارب. ويقول "إذا حصلنا على مئتي كيلو من السردين، فسيكون صيداً رائعاً، لكن قد نعود خالي الوفاض، ما من شيء مضمون هنا".

ويوضح "أشتغل في الصيد منذ كنت في العاشرة، أخرج للصيد يومياً مع أخوتي وأبي حين يكون البحر مفتوحاً أمامنا، نشعر أننا نملك الحياة كلها، وأشعر أن شيئاً ينقصني حين يكون البحر مغلقاً أمام الصيد، من الجنود. وبينما ترتطم ساقاه المتدليتان بأمواج البحر، يضيف "السمك أصبح أقل، جميع القوارب تذهب إلى الصيد في منطقة محدودة، والسمك يهرب بسبب ضوضاء القوارب".

فجأة بعد منتصف الليل، يطفئ الصيادون الأضواء ويقفزون على قاربين صغيرين للمّ الشباك التي تركوها عند القوارب الثلاثة المضاءة بالمصابيح.

يقود عماد فريقه نحو الجزيرة المضاءة وهو ينادي "أسرعوا، أسرعوا، يجب أن نصل السوق مبكراً". وقتها

تختلط رائحة سمك السردين برائحة عوادم وقود محرّكات القوارب العائدة إلى الشاطئ.

وقتها قفز بيوض في الماء، وقال بصوت مسموع لعماد: انتظرني عشر دقائق سوف أجلب الأمانة، فغاص في الماء كأنه غواص ماهر واختفى إلى العمق، صار قلبي يدق، وسألت عماد: أين ذهب بيوض، رد: لا تقلق سوف يجلب شيء ويعود، أنه بطل حقيقي.

كان عماد قلقا جداً ويريد أن يلحق بالسوق، ويبدو أن بيوض تأخر، لكن بعد لحظات خرج من الماء ناحية المركب وهو يجر كيس يطفو على الماء، فساعده عماد في رفعه على المركب، وتحركت المركب ناحية الضوء. بمجرد الوصول، يُطفئ أحدهم الأنوار، بينما يسحب آخرون الشبكة مع صيحات ابتهاج عندما تكون ثقيلة أي محملة بثروة سمكية.

يسحبون الشبكة وهم يغنون "هي، هي هذا حبيبي شيلو شيل"، بينما تتطاير بعض أسماك السردين خارج الشبكة. بعدها، يتم نقل الأسماك إلى عشرات الصناديق البلاستيكية على متن القارب.

مع طلوع النهار، يصلون إلى حسبة السمك وقد غطت سواعدهم حراشيف الأسماك، لكنهم سعداء بصيدهم كمية كبيرة من السردين الصغير.

ساعدتهم في حمل صناديق السمك، لكن بيوض كان يقف بجوار الكيس، اقترب منه.

– ما هذا الكيس يا بيوض

– ضحك بصوت عالي، لا تقلق، أنا عندي مهمة استلام سلاح من البحر، ويساعدني عماد في هذه المهمة، نحن نحب مدينتا وعلينا الحفاظ عليها من الجنود. هل تعلم لمن هذا الكيس؟ أنه لصديقنا نشأت الوادي.

– وبدون تفكير قلت له: المقلاع.

– نعم المقلاع، نشأت الآن خبير في كل أدوات السلاح، وبعد ساعة سوف يأتي ليأخذ الكيس، وهذه فرصة لتقابله وتخبره عن فكرة اللقاء الكبير.

– لا أعتذر عن الانتظار فلا بد أن أغادر إلى العيادة هناك مرضى في انتظاري، لكن أشعر بأني لست بخير، بطني ممغوص.

– عذرك معك، لكن عليك انتظار عماد ليعالج بطنك.

– أنا طبيب وأعالج المرض ويمكنني أن أعالج نفسي

– عماد خبير في علاج مرضى البحر، عنده وصفه سريعة فقط انتظر.

جاء عماد ووصف بيوض حالة الدكتور له، فقال إنه مصاب بدوار البحر، عليك إرجاع (الصفرة) من بطنك، وقتها استسلم الدكتور لأن بطنه صار يصدر أصواتا غريبة، ورأسه به ألم كبير، وعيناه أحمرتا، فأشار للدكتور أن يتدحرج عدة مرات، بالفعل نفذ ما طلب منه، وبعد عدة دحرجات، أرجع من بطنه مادة صفراء مذاقها مرّ (علقم)، فشعر الدكتور بارتياح، وقتها أشعل بيوض مجموعة من أغصان الشجر والورق الناشف، وأخرج سمكة كبيرة من بين الصيد الخاص، ووضعها على النار، وأكل الدكتور منها بشراهة، وجلس عند حافة المركب فنام وغاب في الشخير.

بعد ساعتين من النوم العميق شعر بوخز البرد من تراب الشاطئ المبلل، فتح عينيه، فوجد عليه بطانية تفوح منها رائحة السمك، وكلا من عماد طربي، وبيوض ونشأت الوادي يجلسون بالقرب منه، يسندون ظهورهم على حافة المركب، كانوا يحملون حجارة صغيرة جداً ويلقونها اتجاه سرطان البحر الصغير، كتحدي مَن يقدر إصابته

بالحجر، كان يرقبهم والنعاس يحتله، وبعض آثار المغص..

عماد وبيوض ألقيا الحجارة ناحية السرطان، لكن لم ينجحا، ألقى نشأت حجراً فإذا به يصبه بشكل مباشر، فقام ورقص فرحاً أمامهما، وقال بصوت عالٍ: لا تنسوا أنا المقلاع..

انتبهوا بأن الدكتور نفض عنه البطانية ونهض، تكلم نشأت: أهلا دكتور، مشتاق لك كثيراً، كان عليّ الذهاب لتسليم الكيس، لكن فضلت أن أبقى لأسلم عليك، هيا كلكم اخلعوا ثيابكم لنستحم بالبحر، الماء البارد منعش.

الدكتور: هل أنت مجنون، سوف نموت من البرد.

وقتها بيوض وعماد خلعوا ثيابهم، (بقوا بالملابس الداخلية) فلم يكن من الدكتور خجلاً إلا يشاركهم السباحة في هذا الصباح البارد.

وبدون مقدمات غرسوا رؤوسهم في الماء، وخرجوا بعد عشرة أمتار من الغطس، والدكتور يحاول خوفاً من برد الماء، لكنه تجرأ ودخل الماء، فصار يرتجف، وجلده صار أزرقاً، فصرخ عليهم أنا اموت من البرد ألحقوني.

لكنه بعض لحظات شعر بالدفء وتقدم ناحيتهم، أمسكوا أيديهم بشكل دائري، مشهد جميل، وصاروا يغنون، ويضحكون.

بيوض: تذكرون حين كنا نهرب من المدرسة، ونأتي ونسبح في البحر. نرمي الزي المدرسي والحقائب على الرمل، وندخل شبه عراه.. وبعد أن نخرج من الماء نظل واقفين تحت الشمس لنجف، حتى لا يكشف امرنا.

بعد ساعة من السباحة وتذكر الماضي، والمغامرات بالبحر، والركض واللعب بقناديل البحر، خرجوا وارتدوا ملابسهم، وقتها أحضر أحد الصيادين طعاماً كثيراً، [مقلي سمك، سمك مشوي، سمك بالأرز، سمك بالبندورة، والخبز ساخن (صاج) وقرون فلفل أخضر كبيرة].

وبشكل دائري جلسوا على رمال البحر، وأكلوا كل شيء على المائدة، قبل أن يحضر الشاي، سألهم: هل رأى أحدكم نسيم الأغا خلال الفترة الماضية، صمت الجميع ولم يجب أحد، يبدو أن هذا السؤال إجابته فقط، [إنه منذ أن رأيناه ترك داخلنا رعشة لا تفارقنا، إن تقويم الأسنان الذي كان يضعه كان كافٍ أن يغيرنا، ونقوم حياتنا، ونقدم كل الأشياء الجميلة لمدينتا] هذه الإجابة تقرؤها من

عيونهم الصامتة التي تراقب حركة الأمواج، وطائر النورس الأبيض الذي يلاحق السمك داخل الماء الأزرق.

نهض نشأت وأخبرهم: أنه سوف يغادر، لأنه يريد أن يسلم الكيس لأصحابه، وأشار للدكتور أنه سوف يشارك في اللقاء الكبير.

[سبحنا بشكل دائري، وأكلنا بشكل دائري، إن هذا الشكل يعطينا قوة وحياة أزلية، منه عرفنا أن كل واحد له دور في المدينة].

منذ أن عدت من الدراسة وحصلت على رخصة طبيب عام، لاحظت نشاط إعادة تأهيل شوارع المدينة، وقبل رصف الشوارع بمادة الإسفلت السوداء، كان عليهم توسيع الشوارع من كلا الجانبين، هذا التوسيع كان على حساب الكثير من البيوت التي لم تحصل على إذن موافقة بالبناء.

رغم أن الشارع الذي أعيش فيه لا يوجد أحد يملك إذنا بالبناء، لأن آباءنا جاؤوا إلى هنا بعد رحلة طويلة بعد الهجرة، حيث أنهم سكنوا في بادئ الأمر في خيام على شاطئ البحر، ومن ثم انتقلوا للعيش هنا، حيث كانت البيوت من الطين المخلوط بالقش، ومن ثم حجارة الصدف [الحجارة الصدف، كانت تصنع الحجارة من رمل

شاطئ البحر، تكون الحجارة بها أصداف وحلزون بحري، وكنا نلاحظ هذه الأشياء البحرية عند الترميم، ومن ثم تطور البناء بالأحجار البلدية، وهي مصنوعة من الرمل والأسمنت وكانت ثقيلة الوزن، إلى وصلنا إلى الحجر العادي بأحجام مختلفة، حجم عشرين وحجم عشرة].

التوسيع هدم الكثير من الذكريات، من جدران البيوت القصيرة وأبواب المحلات القديمة ومدخل أفران الخبز وألواح الزينكو، ولم نعد نلاحظ الشبابيك القصيرة المصنوعة من الخشب وعيدان الحديد على ضفتي الشارع، لكن مازالت بعض البيوت تحتفظ بتراثها القديم بشرط أن تكون بعيدة عن المدخل الرئيسي للشارع، وتصل لها عبر ممرات ضيقة ملتوية.

تنتشر الجرافات والشاحنات والعمال والمهندسين خلال شهر أو شهرين لتنهي رصف الشارع، والسبب تأخير العمل: أن أصحاب البيوت كانوا يعزمون العمال على الطعام والشاي والقصص التي لا تنتهي، لكن في يوم وضع مادة القار (الزفتة) يكون يوما تاريخيا، يطغي اللون الأسود على الشارع، رغم أنه أسود لكن يلمع وتشعر بالتجديد، ويغرسون أعمدة الإنارة من الخشب، وكل عمود

يحمل ضوءاً كبيراً، وما أن ينتهي وضع القار وينصرف العمال، يأتي الأطفال ويدوسون على القار، فيتركون أثر أحذيتهم على الإسفلت.

يحضر الشباب كرة بلاستيكية ويبدؤون باللعب، أغلب الناس كانوا يقفون على الرصيف فرحين بالشارع الجديد، وقتها لا أعلم لماذا تذكرت زميلي في حصص الألعاب (الرياضة) حارس المرمي (أبو كريك)، أنا لا أذكر اسمه الأول، لكن أذكر شكله الكبير الضخم، وأذكر كم مباراة ربحها لفريقه، لأن لا أحد يقدر على أن يحرز فيه هدفا.

– سألت أحد الشباب الذين يلعبون الكرة: هل تعرف أبو كريك حارس المرمى الضخم؟

– رد الشاب: هو أشهر مدرب عندنا، وعنده فريق كبير ولديه لاعبين مهرة، وهو يتواجد يوميا حتى غروب الشمس، في الملعب البلدي.

[الملعب البلدي، أنشيء في بداية الستينيات، هو مكان واسع، أرض طينية، كل محبي لعبة كرة القدم وكرة السلة وتنس الطاولة، يتجمعون فيه، وكل المهتمين بالنشاط السياسي، يوجد به مدرج طويل بناء قديم لكنه قوى، وأسفل المدرج يوجد مكتبة بها مئات الكتب من روايات ومجلات

سياسية، وحين كنا نذهب برحلة مدرسية كنا نحضر إليها ونلمس الكتب القديمة، فكان أمين المكتبة يشرح لنا أنواع الكتب وكيف يتم وضعها على الرفوف، ويسرد لنا أما قصة أو عن شخصية (كاتب من الوطن العربي)، في فصل الشتاء تكسو ترابه الأعشاب الخضراء، فكان الناس يحضرون أغنامهم وخرافهم ويرعون في الملعب].

ذهبت عصراً إلى هناك علّي أقابل أبو كريك، شاهدت مئات الناس يتجمهرون حول الملعب، وهناك باعة كثر للترمس والفول النابت وغزل البنات وبذور البطيخ وعباد الشمس، وحين اقترب سألت: ماذا يوجد هنا، رد أحد المتفرجين: أبو كريك عقد مباراة مع فريق المدينة المجاورة، وهناك تحدٍّ كبير بينهما، ومن يفز يشرب الكوكولا على حساب الفريق الآخر، والتحدي أن يلعب أبو كريك حارس مرمى، بدأ الصراخ والهتاف وبعض المشاكل بين الجمهور، دققت في اللاعبين فوجدت أبو كريك الضخم أمام المرمى، والفريق الثاني يصوب الكرات ناحيته، لكنه يصد كل الكرات، وبعد ساعة من اللعب حسب الحكم ضربة جزاء لصالح فريق مدينتنا، فهجم الجمهور واللاعبين على الحكم، فحدثت مشكلة كبيرة

وهاج الحضور وماجوا، لكن أبو كريك دافع عن الحكم بضخامته، ولم يصب الحكم بأي أذى، بعد عشر دقائق، تقدم يحمل الكرة لينفذ ضربة الجزاء، وبالفعل أحرز هدفاً، وبعدها أنهى الحكم المباراة، وصاروا يرقصون ويهتفون احتفالا بهذا الفوز.

لمحني أبو كريك فجاء ناحيتي فحملني مرحباً بي، خجلت منه لأني أبدو كعصفورٍ بين يديه، وبعد أن أنزلني إلى الأرض، جاء أحدهم يحمل زجاجات من الكوكولا، فقدم لي واحدة وقال اشرب هي باردة ولذيذة، جاء الحكم واقترب من أبو كريك، فاخرج من جيبه علبة دخان واعطاها للحكم، فهمت وقتها لماذا غضب الفريق الآخر، وقبل أن أبدأ بالحديث معه حول اللقاء الكبير، جاءت مجموعة من الفريق الآخر يريدون ضرب أبو كريك، لأنهم لمحوا علبة الدخان، فقال لي: أذهب أنت يا دكتور، الضرب سيبدأ، لا تخف عليّ، سوف نلتقي مرة أخرى..

وقفت جانباً، وبالفعل بدأ الضرب بالعصي والأحذية والأيدي وأبو كريك كان ثوراً هائجاً، إلى أن تدخل أفراد من الشرطة [حدث اتفاق بين الجنود المحتلين وبيننا باتفاقية بأن يحكم المدينة من الشرطة (حكم ذاتي) مع

البقاء على الثكنات العسكرية المحاطة بالمدينة كما هي]، فأخذوه إلى مركز الشرطة، فأشار لي أن ألحق به، فركبت معه في سيارة إلى أن وصلنا إلى هناك.

كان وجهه ذو لونين أحمر وأزرق من الضربات، لكنه كان يبتسم بوجهي، فوجه الكلام ليّ:

– لأن الشرطة منا، ركبت دون مقاومة، أنا أتذكرك يا دكتور من المدرسة الإعدادية كان شكلك يدل أن راح تصبح دكتور، وحين دخلت تخصص علمي في الثانوية العامة تأكد حدسي بذلك، مازلت تحتفظ بملامحك، أنا عملت هذه الطوشة الكبيرة، لأني أحب مدينتنا، رغم أنه خطأ، لكن حين تحب شيء لابد أن تخسر مقابل هذا الحب.

– معقول يا أبو كريك، لأني أحب الذكرى سوف أخسر، وماذا سأخسر من ذلك.

– مازلت لا تعرف أسمي الأول، أنا اسمي فواز أبو كريك، هل تعلم أن العيش في الذكري خسارة، أولها أنك ستخسر الوقت الكبير لتعود لها، وأهم شيء إنك لا بد أن تمشي طويلاً وتعيش كل المشاكل التي يعيشها أصدقاؤك

القدامى لتحظى بلحظات سعادة تكررها كما عشتها منذ زمن طويل.

– من أين جئت بكل هذه الفصاحة والتحليل يا صديقي؟

– لا تنسى أنه مع حبي لكرة القدم، أتردد على مكتبة الملعب، وأجلس مع صديقنا مدحت صبري، وحيد صافي، هما يترددان كثيراً على المكتبة، وشجعاني على القراءة والكتابة.

– يا الله كم أنا مشتاق لهما، يا ليت كنت أعرف إنهما في المكتب لكنت زرتهما، لكن كيف شجعاك على القراءة، قلت لهم كيف لنا أن نصبح مثل نسيم الأغا، فكان ردهما عليك تغيير حياتك وتقرأ بجانب هوايتك.

– يبدو أننا كلنا مصابون بمتلازمة التقويم الفضي.

– يبدو كلنا كذلك يا صديقي، نسيت أن أخبرك بأن وحيد صافي يُحضّر لمعرض رسم كبير، لأنه كل يوم يرسم لوحات لشخصيات وبيوت وجدران، وأيضا مدحت صبري يحضر لكتاب كبير يجمع معلومات عن ذكريات المدينة، يبدو إنهما يُحضران لحفل كبير فني ويوزع فيه الكتاب، لكن مدحت يبحث عن عنوان للكتاب.

– بعد أن ننتهي من مركز الشرطة علينا مقابلتهما، أنا مشتاق لهما كثيراً، لأدعوهما للقاء الكبير.

وقفت سيارة الشرطة، ومشى معهم فواز أبو كريك إلى داخل المركز، وكانت المفاجأة، أن تامر الأبيض وبهاء فضل، يعملان رتبة ملازم اول في المركز في قسم التحقيق.

كم كنت سعيداً بهذه المفاجأة، وهما ابتسما في وجهي، وسلمنا على بعضنا البعض بحرارة، وجلسنا معا، لكن أبو كريك كان واقف، ولم يسلما عليه.

– قلت لهما، هذا صديقنا حارس المرمي المشهور

– نحن نعرفه جيدا، فهو مازال صديقنا، وكل أسبوع يأتي بعد طوشة كبيرة، لا تقلق سوف يوقع على تعهد ويمضي، كل الشرطة متعودة عليه، لكننا نحبه لأنه صنع فريق قوي للمدينة فهو مشهور جداً، ونحن فخورون بصديقنا أبو كريك، لكن لو يخفف من غضبه وشراء ذمم الحكام.

ضحكنا وضحك أبو كريك، وجلس بالقرب منا، لكنه لم يتكلم.

– كيف وصلت للعمل هنا، لم أتوقع أني أراكما هنا في الشرطة، لأنك يا تامر كنت تحب الخيال وأنت رقيق،

وأنت يا بهاء كنت تحب الأكل وهل مازال جدول العزائم معك؟

– رد تامر: آباؤنا تركوا العمل في الأراضي المحتلة، وبعد حرب الخليج أصبح الوضع المادي لكل العائلات صعب، فجاء من قال لنا إنهم يبحثون عن شباب للعمل في شرطة المدينة، فسجلنا أسماءنا، فتمت الموافقة علينا، ودخلنا معسكرات تدريب قاسية وتعلمنا كل شيء، ودرسنا مواد في الحقوق والتحقيق، فكان بهاء رفيقي بدراسة القانون والتحقيق، ونحن بحمد الله نحن من أفضل من يعمل في هذا المكان، تغيرت أشكالنا وصرنا أكثر قوة، حتى أنظر إلى جسد بهاء صار نحيفاً ولا يحب الطعام كما كان يحبه في الماضي.

– ضحك بهاء: وأنت يا تامر صرت خشن وتركت النعومة، والآن ولا بنت تحبك زي زمان.

جلسنا أكثر من نصف ساعة وتحدثنا كثير عن الماضي والذكريات، وأخذت منهم وعداً أن يحضرا اللقاء الكبير، وأصر بهاء وقتها أن يطبخ لنا أفضل الطعام بنفسه، فهو على حد قوله أصبح طباخ ماهر من كثرة ما أكل في حياته..

رن هاتف مكتب الشرطة وكانت المكالمة أن هناك حالة سرقة في محل (مكياج سوزان).

خفت أن أقول لهم هل صاحبة المحل سوزان فرج الجميلة، لكن خجلت، ومن عاداتنا المهمة ألا نذكر أسماء النساء... لكني عرفت عنوان المحل، وقلت في نفسي: سوف أذهب وأقطع شكي بنفسي دون السؤال، هل هي صاحبة المحل!.

أشار تامر إلى أبو كريك أن يوقع على تعهد جديد لو صنع مشكلة جديدة سوف يعتقل أو يدفع غرامة، فوقعها وخرجنا من المركز بسلام وشحنة ذكريات طويلة وشريط من الصور لا ينتهي.

بعد هذا اللقاء الذي لم أتوقع خلاله أن أقابل ثلاثة من الأصدقاء ويفتح لي من الطرق لأكمل مسيرة البحث عن الذكريات، لكن بعد هذا كله وكلما تقدمت ناحية الذكري أبدو كعسكري متقاعد خاض العشرات من المعارك، يجلس على كرسي من خشب أمام موقد النار، أمامه بندقية معلقة، وأول صورة التقطها في التجنيد، حين كان جندي جيد يتقن كل الأمور، يحلق ذقنه يومياً، يرتب

سريره، وحذاؤه لامع، طاقية الرأس في حالة استعداد، وبندقيته مهيأة جداً.

فهمت ممن قابلتهم بأن الذكري الطويلة بالأحداث لا يمكن أن تختصرها، لأن مساحة الدهشة المتشابكة كدغل أمازوني لا تصل الشمس إلى أرضه، أو تكاد لا تصل، لذا يحتاج أي مستكشف حقيقي، يحمل معدّاته، إلى قنديل للإضاءة ومنجل لتفادي الأغصان المتشابكة، وقبل ذلك كلّه، يحتاج إلى جرعة وقائية تحسُباً لأي مضاعفات قد تُسبّبها المنعطفات الدرامية لهذه الذكرى.

لا أعلم جملة أبو كريك حين قال ليّ: بأن صديقك مدحت صبري يعد كتابا عن المدينة، لمعت في رأسي فكرة أن أحضر ورقة وقلما وأكتب له سطورا لعله يضيفها إلى صفحات الكتاب، وإن رفض يمكن أن تساعد وحيد صافي في رسم ونحت لوحاته عن المدينة.

فكتبت: مرت السنوات وكبر الأطفال، وأصبحت قصص الأماكن مجرد ذكرى قابعة بداخلها حين تشتاق إلى لحظات الحب المجرد من الأنانية نعود إلى طفولتنا، أتذكر ونحن أطفال نركض بحب دون تكلف ولا سبيل إلى الكراهية في حياتنا. عشنا الحياة دون أمنيات سوى

أن نكبر لكي نخرج دون رقيب، كنا نجهل الابتسامة المفروضة على الوجوه حتى لا يتألم أحد.

مر الوقت سريعاً وكبر الأطفال وفرقت الأيام بينهم وأصبحت الأماكن شاهدة على الضحكات والصراخ، هنا كنا نلعب ونختبئ حتى لا نقع بيد أحد، هنا كنا نرمى النخيل بالأحجار كي يسقط علينا من البلح، ليس للجوع ولكن لنفوز بأي شيء مفيد.

هنا كنا نلعب الكرة ونكسر الزجاج ونركض خوف العقاب. ذكريات العيد حين يأتي لنا بأجمل الملابس كنا نلبسها وننام خوفاً أن نتأخر عن مشاهدة العيد من بدايته، وذكريات أول يوم في المدرسة والبكاء والركض خلف الأم لكي نعود معها، هنا كنا نركض خلف الأحلام والأمنيات التى كبرت معنا، الفرح الذي دخل حياتنا أول يوم كبرنا وكنا أسرع من الجنود حين قفزنا الجدران، واندهش الجميع من خفتنا في الهروب.

أول بدايات الألم برحيل من نثق بحبهم من آباء وأجداد أو جيران حين غابت شمسهم.. لا نعلم كيف تحمل القلب هذه اللحظات.

من قال إن الأماكن مهجورة فقد أخطأ، إنها عامرة بقصص الحب متوهجة بذكريات، مليئة بأحلام محملة بأمنيات وتبريكات كبارنا، نعم رحل عنا الكثير وجاء إلى حياتنا الكثير لكن تبقى ذكريات الماضي هي الباقية لأنها كانت سهلة تشبه العدّ من واحد إلى عشرة، لكن حين كبرنا كان علينا أن نعد ونحسب أرقاما كثيرة ونحفظ أرقام وتواريخ كبيرة، حتى في لحظات تنسى تاريخ ميلادك.

علاقات بما حولنا التي تمتد على مدار سنين، إنها مدهشة قاومت واستمرت من مرحلة الدراسة لما بعدها؛ هذه العلاقة لو عاشت في زمن الديناصورات لكانت قاومت كل الانقراض، نحن نتغير، شخصياتنا تنضج لدرجة لا يمكن أن تتخيلها مع اختلاف تام، أفكارنا تتبدل وتبقى كشعار الخيمة في ذاكرة الروح، لكن لا يمكننا العيش في خيمة الآن.

وحتى تستطيع أن تحافظ على علاقة الصداقة مع إنسان لمدة أطول، لا بد تكون شخصا صادقا، قادرا على الحب، رغم اختلافك مع من تحبه، قادرا أن تتقبل نُضجه وتغيراته.

إن مادة البقاء في هذه المدينة توصف باللطف، والأشد حنانًا، لمَن يداوي بأفعاله وكلماته طعنات التغير في أرواحنا.

نحن في هذه المدينة ابتلينا بلحظات لا تغيب عن العقل حتى لو وقعت في انشغال دائم، دائما نكرر أنفسنا في مواسمنا، في موسم الحصاد في موسم المدارس في موسم العصافير في موسم التين والزيتون، في الأعياد والزواج والموت..

وإذا فرض علينا التغير، نكون خجلين في بداية الأمر، حين خلعت نساء المدينة (الثوب والشال الأبيض) كانت مفاجأة كبيرة، لكن معظمهن احتفظن بهما في الخزانة، ووقت المناسبات يلبسهن بكل فخر وتباهٍ.

[G]

كان عليّ العودة والاهتمام بالعمل، رغم أني أذهب كل يوم، لكن أشعر أني غائب، فقد قرأت أنك حين تشعر بالفراغ في عملك رغم الزحمة، (عليك حك المكان) كأن العمل رأسك، دخلت غرفتي وغيرت وضعية مكتبي وسرير المرضى، وصار المرضى أكثر مشاهدة ليّ، وبدأت النساء من الصباح يتوافدن على العيادة لتقلي العلاج، وبعضهن جاء للحصول على تطعيم الأطفال، وحين أسمع كلمة تطعيم، تأخذني لمشاهد التطعيم داخل مدرستنا، يحضر رجلان يرتديان معاطف بيضاء ويضعان كمامات شفافة وكفوفا جلدية بيضاء، يدخلان كل الغرف الدراسية، وقتها كنا نقف طوابير فيغرس الحقنة في أعلى الكتف كأنها خنجر، وهذه المشاهد تأخذني إلى (الرش من الحشرات) كانوا يأتون ببخاخة كبيرة يضعون فيها مواد بيضاء متطايرة ويرشون كل الطلاب بها.

نوعان من النساء اللاتي يترددن على العيادة للعلاج، على حسب الدوام المدرسي، معظم مدراسنا تعمل فترتين، النوع الأول يأتين باكراً قبل أن تنظف البيت أو تطبخ،

والنوع الثاني بعد أن تجهز البيت والطبيخ والأولاد للمدرسة تأتي، والواحد منهن تجلب كل صغار العائلة للعلاج، وأغلبهن عجولات ويبدأ الصراخ على الأدوار.

يوجد ثلاثة أنواع من الأطباء داخل عيادة الوكالة، النوع الأول لا يفحص المريض فقط يكتفي بشكوى المريض ويكتب العلاج، وهناك مرضي يحبون هذه النوع لأنهم يشكون من عدة أمراض متعددة في نفس الوقت (يأخذون الدواء احتياطا) والنوع الثاني وهو طبيب واحد وهو شيخ وملتحٍ وله قصص مع النساء حين يحضرن للعلاج، يقابلهن بالدروس والموعظة ويبيعهن الكتب الدينية ولا يكتب علاج، فقط ينصح المريض بشرب البابونج والحلبة واليانسون، وأي سيدة لا ترتدي خماراً يوبخها، (لكن النساء قويات وكثيراً يصرخن في وجهه)، أما النوع الثالث وأنا منهم أسمع الشكوى وأفحص المريض بدقة وأكتب الدواء المناسب، لذلك يكون الزحام على باب غرفتي.

أغلب النساء جيدات في التسوق من البسطات المنتشرة أمام باب العيادة، توجد بسطات لبيع الملابس للأطفال والأحذية والخضار وأواني المطبخ، والمنظفات وأغلب هذه البضائع رخيصة الثمن، وعلى هذه البسطات ينشط

تجهيز البنات المقبلات على الزواج من ملابس وعطور وكريمات الشعر والجسد، والرجال يعتمدون عليهن في التسوق وخاصة الخضروات وملابس الأطفال، وكما أنهن شاطرات في تخفيف ثمن السلعة إلى النصف، لكن الرجال يفقدون هذه المهارة في التسوق.

هذا السوق يكون في قمة الجمال والحركة وقت مواسم الأعياد، وخاصة عيد الفطر كما نسيمه عيد السكر والملابس، أما بالنسبة للسكر لأنه يُشترى بكميات كبيرة لصناعة الكعك بالتمور في البيوت، وموسم المدارس الذي يحتاج إلى القرطاسية، الأقلام والدفاتر والمقالم والمحّايات والبرّايات والألوان والتجليد، حيث تُعتبر أمرا ضروريا، يجب عليك أن تعرف ما يحتاج طفلك من دفاتر. ويُفضّل أن تشتريها بالعدد المناسب لا زيادة ولا نقصان، أمّا بالنسبة لأقلام الرّصاص والمحّايات يُفضّل أن تحضرها بكمية كبيرة؛ لأنها الأكثر استخداماً طوال العام، يمكن أن تجد ما تريده لكن بجودة أقل مما تتوقع.

وسبب سرعة وتزاحم النساء والصراخ لتحصل على العلاج في وقت سريع، لتلحق البسطات المنتشرة، لتشتري ما تحتاج وتعود للبيت بالدواء والخضروات.

الأيام تشبه بعضها البعض والروتين يفتك بعقلك وأعصابك من عدد المرضى والزحمة إلا أن حدث شيء يجبرك العودة والحنين إلى الماضي، طرقت باب غرفتي سيدة تمسك بطفلين ولد وبنت عرفتها من اللحظة الأولى إنها هديل نوح، ابتسمت ورحبت بها، شعرت وقتها أني أعرفها، كانت ذكية وراقية ولماحة.

– يبدو أنك تعرفني يا دكتور؟

– بصراحة أعرفك جيد، أنت هديل نوح، كنت دائما تمشين في شارع المدرسة مع رقية بدر وحنان راغب ونجوى رستم وسوزان فرج.

– أنت تعرف كل أسماء صديقاتي، ويبدو أنك كنت تراقبنا

– بصراحة كل الأولاد كانوا يعرفون أسماءكن.

– أفهم الآن من يكون مراقب في الصغر يصبح دكتور حين يكبر.

– هل البنت والولد أولادك؟

– نعم هما كذلك، لكنهما أبكمان، مرض وراثي، تزوجت ابن عمي، وأنجبنا الولد والبنت وظهر عليهم المرض، فقررت عدم الإنجاب، لكن زوجي لم يوافقنِ على الفكرة، فحدثت مشاكل كبيرة على الإنجاب، فتركنا بعضنا

البعض، وطليقي ترك المدينة وهرب، وأنا الآن أربي أولادي في بيت أبي.

– أنا آسف على السؤال، ما هي أخبار صديقاتك؟

– رقية بدر تزوجت ابن خالتها وسافرا إلى الأردن ويعمل زوجها في إصلاح السيارات الحديثة، وترسل كل شهر أموال وهدايا لعائلتها، أما حنان راغب فقد اعتقلت لمدة سنوات لأنها وقت اعتقال أخيها من البيت طعنت أحد الجنود، وخرجت من السجن وتعمل في حملات ومظاهرات لمناهضة اعتقال النساء، وتقوم بزيارة أسر الأسرى والشهداء ولم تتزوج حتى الآن، أما نجوى رستم تزوجت وأنجبت عشرة أطفال وصارت سمينة ووزنها ثقيل كأنها سيدة عجوز ولا تخرج من البيت كثيرا، كنا نتقابل في المناسبات نرى بعضنا البعض مرة أو مرتين في السنة، الحياة تفاصيلها كثيرة ومملة ولا يبقى شيء كما هو، الكل يتغير.

– وماذا عن سوزان فرج؟

– لا أعلم الكثير عنها، لأنه بعد مقتل أمها بظروف غامضة، مُنعنا أن نمشي معها من أهالينا، يبدو أن هناك شيئا خطيرا.

– هل تعلمي أنها تمتلك محلا للمكياج؟

– سوزان جميلة وتصنع الجمال، أنا مشتاقة لها كثيراً، سوف أزورها. نسيت أني جئت لأعالج أولادي، هما يشعران بالسخونة والسعال.

– لا تقلقي سوف أكتب لك دواء يناسبهما، هديل أنا أبحث عن أصدقائي القدامى وقد قابلت بعضهم، ما هو رأيك أن تبحثي عن زميلاتك في المدرسة وتتجمعن في مكان وتعدن الذكريات.

– فكرة حلوة، لكن كل زميلاتي أصبحن ربات بيوت، ولا يملكن القرار لذلك، لكن سأحاول أن أزورهم. لأن فكرتك تشغلني الآن. وأظن أن بعضنا يستطيع ذلك، أنا يمكنني على الأقل القيام بذلك. فقط الأمر يحتاج إلى روحانية عالية، ونية خالصة في العودة إلى الماضي، وشفافية وتحمل التغير الذي حدث معهم.. لكن علينا أن نتخلى عن مساحة من التفكير في بذاتنا، ونتجاوز هذه الذات ونذهب للآخرين والماضي والذكريات بنية قوية، سأحاول. في مدينتنا سرعان ما تحولت الفتيات إلى ربات بيوت بمجرد الزواج، سواء برغبتهن أو تحت ضغط الزوج،

المهم أن كل منهن تخلت عن حلمها الخاص بالعمل وبكل طموحاتها.

في الحقيقة لا يمكنني التحدث عن كل ربات البيوت بشكل واحد فلكل منهن نمطها، حتى من زائرات العيادة ممن يجلسن في المنزل فهناك النمط الآمن المستكين أو ما أسميه ربة المنزل بالوراثة. وهي الفتاة التي تربت ووجدت والدتها تجلس في المنزل واقتنعت من داخلها بحتمية ذلك ولم تفكر في العمل إلا من باب محاكاة صديقاتها في أحلامهن، وهذا النمط، لم تنزعج أبدا من الجلوس في المنزل وتجد العديد من الأشياء التي يمكنها أن تفعلها في وقت فراغها.

لم أسمعها تشكو قط من وقت فراغ، كل ما تفعله ليس له علاقة بالدراسة والتعليم والتخصص فقط تجلس في المنزل لتحيك الملابس والغطاءات لسريرها وسرير طفلها وتحول كل قطعة قماش إلى مماسح أو مماسك للأواني الخاصة بالطبخ والمقالي، وتطبخ طبخات مختلفة.

دوما ترى أن هناك خطاً فاصلاً بين الأحلام الشخصية قبل الزواج وبعده، هذه المرأة تحتفظ باستراتيجياتها للتوافق الشخصي، لكن بعضهن تتحول وترفض هذا النمط

تحصل على مهارات في حياتها تصبح معلمة وهذا أكبر تغير حدث خلال السنوات العشرة الماضية في المدينة.
تتشابه النساء هنا رغم اختلافهن في أنماط شخصياتهن، لكن يكمن التشابه في قرارهن بالاستفادة بالوقت في زيادة توافقهن الشخصي مع العائلة.
شعرت بالسعادة بعد لقاء هديل نوح، وعندي عادة بعد لحظات السعادة أن أغير المكان الذي أجلس فيه إلى مكان آخر، فقد هممت لأغادر، فدخل عليّ الدكتور الشيخ يحمل مجموعة من الكُتيبات الصغيرة الدينية، ووضعها على المكتب، وبصوت غريب.
– دكتور خالد هل تشتري هذه الكتب، لأننا نتبرع بثمنها للأسر الفقيرة؟
لم يكمل كلامه تركت غرفتي وخرجت مسرعاً، بصراحة هذا الأسلوب في مساعدة فقراء المدينة لم يعجبني، فقد انتشرت هذه الحالات من التسول باسم الفقراء.
توقفت، وسألت نفسي: معقول يعرف صديقي راضي حمد؟ سوف أرجع وأسأله!
– أقول لك يا شيخ ولا يا دكتور.

– أنا أحب كلمة شيخ فهي قريبة من الله أكثر من كلمة دكتور.

– مش مشكلة الصفات والأسماء، المهم أن تحمل الصفة وتعمل بها.

– لماذا عدت يا دكتور خالد؟

– عدت لأسألك عن صديق قديم اسمه راضي حمد؟

– راضي حمد، هل تعرفه، هو كبيرنا وله شأن كبير عندنا، وهو من يجلب لنا هذه الكتيبات، ويجمع كل التبرعات للفقراء.

– مازال يخرج في سبيل الله عند أطراف المدينة.

– الآن يسافر بالأشهر خارج المدينة إلى دول بعيدة ويعود بالكتب والهدايا والأعشاب والتمور.

– هل هو موجود في المدينة أم خارجها؟

– سمعت أنه جاء من السفر، سوف نذهب في القريب لزيارته، لكن بعد فترة لأنه متزوج من ثلاث نساء.

– ثلاث نساء! أين يسكن راضي، أقصد الشيخ راضي.

– خلف المدرسة، له مكان بيت كبير يتردد عليه الفقراء والمساكين والمرضى.

– لماذا المرضي يذهبون له؟

– يعالجهم بالأعشاب، أنه مبروك!

صرت أردد كلمة أنه مبروك، حتى وصلت إلى باب العيادة الكبير لأختار سيارة تقلني، وكان داخلي تردد كبير، هل أذهب لراضي حمد، أم أذهب إلى مكتبة النادي لعلي أقابل وحيد صافي ومدحت صبري، لم أقرر، لكن لاحظت سيارة قادمة، عندنا في المدينة لا يوجد سيارة أجرة مخصصة يمكنك التلويح لأي سيارة وتركب بها لتصل إلى المكان الذي تريده، وقفت السيارة وكان السائق يضحك، يبدو أنه يعرفني.

– سألني أين سوف تذهب يا دكتور فهمي؟

– يبدو أنك تعرفني جيداً، هل تأتي على العيادة تتعالج.

– أنت لم تركز في وجهي، أنا سليم شوكة.

– يا الله سليم أنا أحبك ومشتاق لك كثيراً، بصراحة أنا كنت أبحث عنك، اركن السيارة على جنب، سوف أعطيك أجرك طوال اليوم.

– لا تقلق هذه سيارتي، سيارة بودي رخيصة، [السيارة البودي هي سيارات مسروقة من مستعمرات الجنود، ويتم تغيير لوحة الأرقام الصفراء بلوحة أرقام بيضاء، لكن لا

يوجد لها ملف ترخيص عند شرطة المدينة] المهم هل أنت مبسوط في العمل كطبيب في العيادة.

– الحمد لله وسعيد لأني رأيتك، أنا قابلت كل أصدقاء المدرسة، وقريب جداً سوف نتقابل في مكان كبير نجتمع معاً ونعيد الذكريات، لكن لماذا تعمل على السيارة ولم تحصل على وظيفة؟

– أنا أعمل مهندس مساحة، درست عامين في الجامعة وحصلت على دبلوم مساحة، وأعمل في شركة مقاولات للبناء.

– وبعد الدوام تعمل على السيارة؟

– القصة ليس هكذا، هذه السيارات مسروقة، نأخذها عن طريق العمال الذين يعملون خلف الثكنات العسكرية، هل تعلم أن الثكنات العسكرية يوجد بها مدينين وعمال أجانب ومناطق زراعية ابتلعت كل الأراضي ما بين المدينة والبحر، العمال يسرقون السيارات أو باتفاق مع الجنود لسرقتها، لأن دولتهم تعوضهم ثمن السيارة، فتهرب السيارة وتغير لوحة الأرقام، وأنا أركبها لمدة ثلاث أو أربعة أيام، وحين يأتي الزبون يعرف أن من يركبها المهندس، تصبح

السيارة ذي صيت حسن [سيارة المهندس] وأحصل على عمولة من بيع السيارة.

– أنا متفاجئ مما أسمع منك يا سليم!

– لا تتفاجأ أنا بعد موت أبي وحين ترك عائلة كبيرة من زوجتين، كان عليّ أن أعمل عدة أعمال حتى نقدر على العيش، ولعلمك يا دكتور فهمي ليس التهريب على السيارات وحسب، لكن هناك تهريب أسلحة تدخل على المدينة عن طريق الجنود.

– ما هي أخبار صديقك أنور التنح.

– أنور عنده محل كبير للهواتف الأرضية والجوالات وعنده مهارة في توفير رصيد في الجوالات مجاني ويقدر أن يصلح أي هاتف، خبير في الأرقام والشيفرات، ويوجد عنده أجهزة غريبة لتوصيل الإرسال [انتشرت في المدينة أنواع هواتف محمولة كبيرة الحجم من شركة (موتورولا) بأنواع مختلفة يمكنك أن تحصل على رصيد مجاني أو بمقابل قليل عبر إدخال شيفرة أرقام شركة الاتصال] شو رأيك أن نذهب ونشرب عنده قهوة.

– فرصة كبيرة أن أرى أنور التنح، لكن كان عندي رغبة أن أزور راضي حمد.

– قصدك الشيخ راضي حمد، (ضحك سليم) لن يقابلك لأننا في نظره كفار، لأننا نرتدي البنطال والقميص.

– أنا لا يوجد عندي إلا البنطال والقميص، لكن كان عندي رغبة أن أدعوه للقاء الكبير.

– أنا دائما أراه عند سوق الحلال (الأغنام) بشتري الخراف لأن يذبح الكثير منها، يزوره زوار من بلدان كثيرة أذكر أفغانستان وماليزيا وباكستان، حين أراه سوف أخبره عنك وأنك تريده لقاءه. الآن نذهب لشرب قهوة بطعم الهواتف المحمولة في دكان أنور.

– هل تذكر نسيم الأغا؟

– نسيم الأغا، الآن يا صديقي كلنا نسيم الأغا. تغيرنا وركبنا تقويم أسنان ليس فقط للأسنان لكن لكل حياتنا، نحن صرنا نبحث عن الحياة والابتسامة ونكون مهمين في هذه المدينة، إما بالمال أو بالعلم أو بالمقاومة، أنظر إلى نفسك يا دكتور فهمي أنت أيضا منذ دخل علينا نسيم الأغا الفصل الدراسي انتقلت من الرقم الثاني إلى الرقم الأول في الحياة، حتى وقتها غيرت مقعدك وصرت تجلس في المقعد الأول.

– يبدو أننا كلنا تغيرنا.

[وقبل أن نصل إلى دكان أنور أوقف تجار السيارات سليم يريدون شراء السيارة، فتركني ولم يهتم لوجودي، بل اعتذر مني بعدم الذهاب إلى أي مكان، لأن يريد بيع السيارة، وهذه فرصة، نزلت من السيارة بكل هدوء تحركت إلى بيتي].

بدون مقدمات في هذه المدينة تصير السماء مليئة بالطائرات والناس تركض بدون اتجاه خوفاً من صوت القنابل، تعلو أعمدة الدخان الأسود عند الأطراف، الأخبار العاجلة التي ثبت من الراديو تتحكم في شعور وحركة الناس، والقلوب معلقة بأسماء المصابين والمفقودين من هذا القصف الذي لم يترك أي متر وإلا وترك أثراً يوقع في الذاكرة حزناً من قتلي ومصابين ومشردين وبيوت مهدمة وشوارع عادت إلى هيئتها الأولى من تراب.

في أسرع من البرق تتعطل الحياة، الأسواق تنفض، وأطفال المدارس يهربون إلى بيوتهم، يجلس الرجال عند عتبات البيوت وعيونهم وآذانهم مفتوحة لأي خبر، الكل يفتش عن أولاده، وبعضهم ينتظر أي خبرٍ عن أولاده الكبار الذين خرجوا منذ الصباح، بعد أيام من الخوف والرعب والصراخ وصوت سيارات الإسعاف وسيارات

المطافئ بضوئيهما الأحمر والبرتقالي الذين يبرقان في زجاج نوافذ المدينة، هذا القصف يترك بعد أيام أثرا حزينا في شوارع المدينة الثمانية.

تنتشر بيوت العزاء وتنتشر البنادق والشعارات والموت والحزن يخيم على كل تفاصيل الحياة، ويبدأ كل شيء من البضائع بالتناقص، ويتهافت الناس على شراء الشموع وأعواد الكبريت لأن الكهرباء قطعت بسبب إصابة الأسلاك الكبيرة التي تغذي المدينة بالكهرباء، وتشح المواد الغذائية وخاصة الدقيق بسبب تعطل حركة التجار، وخاصة غاز الطهي فيشتري الناس الأخشاب والنجارة الناعمة لإشعال النار والطهي عليها، والفقير يشعل أي شيء من قماش أو بلاستيك فتصير رائحة الشوارع لا تحتمل والهواء مخلوطا بالدخان.

بعد القصف تلملم الناس جراحها وتتحسس بعضها البعض، ويهرع الناس إلى المستشفيات ليتزاوروا، وبعضهم يذهب إلى المقبرة ليرتبوا القبور لأنهم وقت القصف دفنوا موتاهم بعجلة وخوف.

تعود الحياة ببطء شديد إلى ما مضى، وتعود الحركة عند الحلاقين وبسطات الملابس والأحذية، وتعود الأفران

وتفتح العيادات الصحية أبوابها للمرضى [في وقت القصف لا يمرض أحد يطير رذاذ الإنفلونزا ويتبخر داء السعال وتفر السخونة من النوافذ، لا أحد يمرض إلا من عنف القصف]

الأطباء والممرضون والمسعفون يواصلون العمل ليلاً ونهاراً، أذكر أنيّ لم أنم سوى ساعات قليلة خلال أيام القصف، ثم عدت للبيت وقد أخذت قسطاً من النوم الطويل نمت يوماً كاملاً، ومساءً حين شبعت من النوم، صنعت فنجان قهوة وجلست على عتبة البيت، لأتحسس القصص بعد هذا القصف [أبي يحضر القهوة البرازيلية وتحمصها أمي على النار، ثم يأخذها إلى المطحنة في السوق ويضع عليها كمية كبيرة من حب الهيل الأخضر، تكون شهية ورائحتها جذابة].

أولاد الشارع جلبوا الكرة وصاروا يلعبون، ظهر فواز أبو كريك وطرح التحية: يا دكتور سوف أذهب إلى مكتبة النادي، ذهب مدحت صبري ووحيد صافي، يريدون تنظيف المكتبة، لأن هناك صاروخ نزل بالقرب منها، وحدث ضرر في الجدران والرفوف والكتب.

هززت رأسي: سوف ألحق بك، هذا فرصة لأراهم، وأساعدهم في التنظيف.

لا أعلم من أين جاءتني القوة، غيرت ملابس النوم وركضت خلف فواز حتى وصلت المكتبة، كان الوضع صعبا، كان مدحت يحمل الكتب من الأرض ويمسح عنها الغبار، ووحيد يعدل الرفوف، وفواز يكنس الغبار، أنا تدخلت وحملت شاكوشاً ومسامير وصرت أعدل الرفوف والكراسي، وأحضر فواز قطع خشبية ووضعها بدل الزجاج المهشم، بعد ساعات من العمل، بدأت العتمة تنزل على المكان، كان القمر بدراً، فجلسنا على باب المكتبة بعد أن تأكدنا من إتمام كل شيء، ورحب بي وحيد ومدحت، لا نعلم من أين جاء فواز بالقهوة، بدأنا نشرب، ومازال الغبار ملتصق بملابسنا.

سألت مدحت:

– سمعت أنك تُحضر كتاباً كبيراً عن قصص المدينة.

– عن القصص والشخصيات والشوارع والوجوه والحاضرين والغائبين.

– أنا لم أتوقع أنك كاتب ويمكنك أن تصنع كتاب عن المدينة، هي مفاجأة لكنها مفاجأة عظيمة ومهمة لنا.

– يا دكتور طالما كانتْ الكتابةُ مصدرَ سعادتي. حتى عندما كنتُ طفلاً في المدرسة، كنتُ أتشوّق إلى درس الكتابة أكثر من أيّ درس آخر في الجدول الدراسي؛ ففيه كنّا نكتب القصّة أو أيّ شيء آخر، يعتقد معلّمنا جلال حسن (مدرس اللغة العربية) أنه سيثير اهتمامنا، ما إن يبدأ يغرق الجميع في غياهب الصمت، ينكبّون على طاولاتهم، محاولين استدعاء ما يستحقّ السّرد من الذاكرة والخيال. في هذه المحاولات المُبكِّرة، لم تكن ثمّة رغبة في قول شيء ما، على وجه الخصوص، أو تذكُّر تجربة غير قابلة للنسيان، أو تعبير عن قناعات راسخة، أو بوح بشكوى حارقة. أيضاً، لم تتطلّب هذه المحاولات أيَّ قارئ سوى المعلّمِ جلال الذي ينظر إلى هذه الكتابات بوصفها تمريناً سيحسِّن الخط عندنا. لقد كتبتُ لأنه قد طُلب مني أن أكتب، ولأنني وجدتُ متعةً في هذه الحصة، الكتابةُ التي كنت أتحدَّث عنها، والتي يستدعيها موضوع التعبير، لم تكن الكتابةُ التي سأتبيّنها لاحقاً. إنها كتابةٌ غير مُقادة أو موجَّهة، أو مُحسّنة، أو خاضعة لإعادة التنظيم مرَّات ومرَّات، في هذه المحاولات المبكِّرة، كتبتُ على خطّ مستقيم، إن جاز التعبير، دون تردُّد أو كثير من

التصحيح، بهذه البراءة. قرأتُ، أيضاً، بنوع من النهم، وبالمثل، دون أيّ توجيه، لم أكن أعرف، في ذلك الوقت، أني خارج الحدود في بعض الأحيان، عندما لم أكن مُضطّراً للاستيقاظ مبكّراً للذهاب إلى المدرسة، كنت أظلّ أقرأ إلى وقت متأخِّر جدّاً من الليل، حتى أن والدي، الذي كان يعاني من الأرق، كان يضطرّ للقدوم إلى غرفتي، ليطلب مني إطفاء الضوء. لا يمكنك أن تقول له –حتى لو تجرّأتَ–: أنت لا تزال مُستيقظاً، أو تسأله: لماذا لا تنام أنت، أيضاً؟؛ فليست هذه الطريقة التي يمكن أن تخاطب بها والدك، على أيّ حال، لقد كان يعاني من أرقه في الظلام، فيطفئ الضوء حتى لا يزعج والدتي، لذا فإن تعليمات إطفاء الضوء ستظلّ قائمة. بعد ذلك عشقت الحروف والكلمات أصدقائي حملوا البنادق والحجارة وركضوا خلف الجنود كنت مثلهم لكن أنا أشعر بأن الكتابة مقاومة ونحت في الظلام، مارست الكتابة والقراءة، كانتا أكثر تنظيماً، لم تتوقّفا عن كونهما متعةً لم ينتبني خلالها أيّ شعور بالمعاناة. تدريجيّاً، أصبح لتلك المتعة معنًى جديداً؛ معنًى لم أدركه تماماً بدأت المدينة تنضج داخلي. لقد اتَّضح لي أن هناك شيئاً يجب أن أقوله، وأن

ثمّة مَهمّة عليّ القيام بها، وأن هناك مآسٍ ومظالم يجب استخلاصها وإعادة النظر فيها. بعيداً عن الأحداث التي مرت على المدينة من الخيمة إلى حجز الطين إلى البيوت، لم يجنِّب ذهني الشعور العميق بالانزعاج والقلق. ربّما كنتُ أقلّ قدرةً على مقاومة سطوة مثل هذه الذكريات ممّا لو كنتُ بين الناس الذين ما زالوا يعيشون عواقبها، بعد سنوات عديدة، مشيتُ في شوارع البلدة التي نشأتُ فيها، ورأيت التدهور الذي أصاب الحجر، والبشر الذين يعيشون في فقر مدقع، ويكابدون الحياة، ويخشون طمس ذاكرة الماضي، لقد أصبح من الضروري بذل الجهد للحفاظ على تلك الذاكرة، والكتابة عمّا كان هناك، واستعادة اللحظات والقصص التي عاشها الناس، والتي بها، ومن خلالها، فهموا أنفسهم. كان من الحتميّ أن نكتب قبل أن تمحى من ذاكرتنا.

– كلامك جذاب يا مدحت، يبدو أنك قرأت العشرات من الكتب والروايات، سمعت أن وحيد يُحضر لمعرض عن المدينة أيضاً.

– ردّ وحيد: أنا حصلت على صور قديمة لبدايات المدينة، صور لأول مشفى ولأول مبني كبير، صورة

للسينما وصور وجوه رحلت عنا لكنها تركت أثراً في نفوسنا، سوف أحول كل هذه الصور إلى لوحات بالرسم، ومنحوتات بالخشب، كل واحد فينا يحمل شيئاً داخله يمكن أن يخدم المدينة، إما بالعلم أو بالموهبة، يبدو أننا سنعيش كثيراً هنا، وفكرة العودة صعبة، وتحتاج الكثير منا علينا أن نتشارك بالعلم والموهبة والمقاومة لنعود.

– تكلم فواز: سوف نعود، لو عدنا لأنفسنا وصرنا أقوياء.

– يا مدحت ما هو عنوان كتابك.

– لا أعلم لم أختر له عنوان، كل الذي عملته كنت أذهب للأماكن الذي يتواجد بها الناس، وأسألهم عن قصص وشخصيات وعادات ومغامرات ومهن كانت تسود بالمدينة، جمعت الكثير من المعلومات عن المدينة. وسوف أعطي كل المعلومات لصديقي وحيد ليرسم لوحات.

– فواز: أنت تحتاج إلى بطل لكتابك.

– كلنا أبطال، كلنا نحتنا في الصخر، وتصدينا للريح، ومن عاشوا معنا، لم يحصلوا على الابتسامة أو الضحك إلا بعد أن مروا فوق شوك غابات الحزن والحرمان.

– الدكتور: عندي عنوان لكتابك [تقويم أسنان فضي]، منذ دخل علينا نسيم الفصل في المدرسة الإعدادية وقتها أصبنا بحمى التغير للأفضل، كلنا صنعنا التغير في حياتنا، وكان ظِلّ المدينة يقودنا إلى الضوء.

– عنوان جميل، وجاءت في رأسي فكرة أن تكون أنت البطل يا دكتور.

– كيف أكون أنا البطل وأنا مجرد رقم في هذه المدينة.

– أنت الذي سوف تبحث عن الذكريات، لأنك أنت الوحيد الذي غبت كثيراً عن المدينة، وبعد عودتك أصبت بشيء غريب هو العودة للذكريات، وصرت تبحث عنا، واحداً تلو الآخر.

– أنت الكاتب وأنت من تختار الأشخاص لكتابك!

– صديقي الدكتور كل واحد تقابله من ماضي الذكريات، عليك دعوته في يوم اللقاء الكبير.

– وما هو موعد ويوم وتاريخ هذا اللقاء؟

– ردّ وحيد، يوجد الكثير من التواريخ مرت على المدينة لا بد لنا أن نتذكرها، كلّ شيء في حياتنا لهُ تاريخ صلاحية ورسالة واضحة، ومتى ما حلّ تاريخ انتهائها ستخرج من حياتنا، أنتَ الوحيد أقصد بطل هذا الكتاب

الذي تعرف المغزى من دخوله في حياتك.. والمغزى من خروجه، ستصلكَ الرسالة واضحة.

– يبدو أننا استعجلنا في هذا الحوار، لأنه ظلّ ثلاثة أصدقاء أبحث عنهم ولم أرهم حتى الآن، نسيم الأغا، رامي عبدو، خالد صقر.

– رد مدحت صبري: لا تستعجل يا دكتور يا بطل هذا الكتاب لم نصل إلى النهاية، فقط عليك تحديد ميعاد اللقاء وتري كل شيء كما تريد.

بين الصحو وبين الخدر، وبتردد طويل سألته بصوت منخفض: "لماذا يا صديقي أنا البطل؟"، فقال بصوت مرتفع ومعنويات عالية: سوف نكتب هذه المدينة كما نريد. فقدت كل مهاراتي في الكلام، وبقيت واقفا مثل شجرة. فخرجت الكلمات من فمي دون وعي: هل أستطيع ان أفعل أي شيء! لأكون بطلاً مفيداً في كتابك [تقويم أسنان فضي]، التفتُ حولي فلم أجد أحداً وكان الجو غريباً تشعر أن فصول السنة تمارس نشاطها في هذه اللحظة، أو أنا مصاب بحمى وأهذي، رددت في نفسي: يبدو هذا مشهد من مشاهد الكتاب الذي يجهز له مدحت، أو أنا

لوحة من لوحات وحيد، خفت فهربت كطفل يشعر أن ظلاً أسوداً يلاحقه.

يبدو أنّ بندول الساعة لهذه المدينة يدور دون أن يتوقف نهائياً عند لحظةٍ بعينها ولن يقف لأننا نحن من نراقصه طويلاً تجعل الأحداث فيها غير مرتبة، ومتشابهة، كل شارع له مجنون وله دكان وله أثر وله نوافذ وله عتبات للثرثرة، لكنها مدهشة لأنها لا تخضع لقوانين السرد التقليدية ولا الواقعية تماماً، لكنها تكشف بصدقٍ وعمق العائلة التي تطحنها الحروب والأحداث من موت وولادة وحب وكراهية ونقوش على الجدران، في لحظة كلنا نعاني من فوبيا الموت، لكن ننجب كثيراً، نعيش اللحظة وفقط. مدينتا سيمفونية سردية تقال على ألسنة أشخاص غير عاديين، لا يحول شيء أو قانون، دون أن يسموا الأشياء بمسمياتها، ويُعروا النفس وآلامها الوجودية دون أي تجميل إلى جمال أو حدائق يمكن أن تكون مرتاح البال وأنت تمر بها.

هل أكمل البحث عما تبقى من قائمتي أو أنتظر الطاقة التي يبثها الكاتب داخلي لأتقدم في السطور والأحداث وأدون أكثر من الوجوه والمباني والكلمات والجمل

والأغاني والملابس والحكايات والطرق والأبواب، نحن نحيا في مساحة حرية للكتابة والرسم والغناء، كان الجنود يعتقلون أي شخص يكتب أو يرسم أو يغني، والكثير من هؤلاء اعتقلوا في السجون طويلاً لأنهم شاركوا شباب الحجارة والإطارات المحروقة والمقاومة جنباً إلى جنب بالكلمة واللون والأغنية.

إن المسافة بين مكتبة النادي وبيتي لا بأس بها، يمكنك في ثلاث دقائق أن تقطعها دون جهد، لكن لو دققت في كل ما حولك من تفاصيل وأشكال ووجوه تحتاج إلى ساعتين، تكتشف أن الفطرة التي ورثها جيل كامل ممن عاشوا في المدينة ورثوا الفن بكامل تفاصيله وحتي صديقي وحيد صافي الذي يُحضر معرضه الفني تجد أن الشيفرات الوراثية كسبها من نساء الشارع البارعات في غزل الصوف وحياكة الأثواب بخيوط الحرير الملونة، كل واحدة منهن تقدر على صناعة لوحاتها من تحويل الخيوط إلى تحفة فنية من الغطاءات والملابس، تحيك حدائق وجبال وغزلان على قطعة قماش، كانت بيوتنا صغيرة وسقفها من زينكو لكن البيت تجده منظماً والممرات تدل أن الإبداع موجود عندنا، كانت النساء

تحول وقت فراغها وجوعها إلى جمال ربما يرمز إلى أشياء لا يمكن إدراكها، إن الأمر لا يتعدى كونهن نساء ضعيفات لكنهن يحملن على أكتافهن المدينة وعائلتها بما تصنع كل يوم.

وأن صديقي مدحت صبري لم يأت بالمصادفة ليصير كاتباً ويحب الكتب والرفوف لكن هذا الحب رسا في وجدانه منذ أن كنا نعاقب بالمدرسة بنسخ الدرس خمسين مرة، عندما كنا نكتب على دفاترنا المصنوعة من الأوراق والخيوط كان العقاب هذا يفتح الجروح ويكويها في الوقت نفسه، وكل غبار الطباشير الذي كان يتطاير من اللوح الأسود إلى أنوفنا، وقتها اختلطت الكلمات في دمنا، حين كنا نكتب حروف من نحن، وأسماءنا على المقاعد بقطع من الحديد على الخشب، نحن نحب الكتابة حين كنا نرى الملثم يوزع المنشورات في الشوارع وعلى أبواب المدارس كنا نري الكلمات بالخط الأسود مجرد كلمات لكن حين تقرأها يفور الدم في جسدك، إنها كلمات فقط، لا يقدر أحد أن يفسر لنا بعد القراءة كيف كنا نقفز إلى حدود الثكنات العسكرية نرمي الحجارة ونصرخ في

وجوههم ارحلوا، الذي كتب الكلمات هو وحده القادر على التفسير.

أن تجد نفسك فجأة في هذه المدينة كما لو أنك قد وصلت للتو قادماً من كوكب آخر لا تعرف لماذا طُردت منه لكن تعلمنا بدون قصد أن نحيا وصرنا نشبه صغار الطيور حين تغادر الأعشاش، عليها أن تطير وتجيد الطيران حتى تفرّ من مفترسها.. يعني أننا اخترنا أن نقاوم ونحارب بشراسة في هذه الحياة، وأن نكافح، علّنا نكمل ما تبقى من أعمارنا الهاربة ببعض من الحب والفرح والشغف والتفاؤل. نكرر الجمال في أحاديثنا، وربما يزداد حضوره على أعتاب كل عام جديد، وكأننا نعود لنحمل في قلوبنا "آمالا" مؤجلة، نرحّلها معنا أينما ذهبنا؛ يوما بعد يوم، وعاما تلو الآخر، علّ الزمن يهبنا بعض بهجته، ويمنحنا تحقيقا لحلم أو أُمنية داعبت خيالاتنا، واستقرت بأرواحنا، فربيناها طويلاً حتى نضجتْ وأهدتْ إلينا الفرح. ربما لا نعي معنى هذه الكلمة ووقعها الكبير على النفس، نحاول رغما عنّا أن نقنعَ بها أنفسَنَا في أحيان كثيرة، علّنا نستطيع أن نكمل ما تبقى من محطات الحياة نحو قادم أجمل لا نرى ملامحه بعد. لكننا وإن ضللنا الطريق لوقت

طويل، قد تأتي لحظة نتيقن أن هذه الكلمة ببساطتها تحمل لنا طاقات هائلة إنْ آمنّا بها وسعينا نحوها، فقد تكون مفتاح أبواب مؤصدة لحياة قادمة تنتظر أن نفتحَ أعينَنا جيدا لنرى ماذا تخبئ وراءها، علّ الأنوار فيها تتفجر نحونا بقوة، نسمح لقاتل شرس أن يفترس أجمل ما فينا، وأن يُسقط معه مفاتيح أفراحنا ويدمر أحلامنا؛ ليطغى القنوط واليأس على دواخلنا، فيتلاشى شيئا فشيئا كل ما يمكنه أن يقاوم الشعور بالانزواء، أو الرغبة في التلاشي والاندحار من الحياة.

[H]

هلوسات لذيذة وطويلة ومرهقة طوال الليل أصابتني بعد زيارتي لمكتبة النادي، لا أعلم ما حلّ بي كأني مصاب بحمى، مرةً تبرد وتحتاج كل غطاءات البيت، ومرةً تحتاج كل التيارات الباردة القطبية التي تهب على الكرة الأرضية من درجة الحرارة التي تشتعل في جسدك، في هذه اللحظة كل ما تحتاجه فقط ورقة وقلم وتكتب أو تدون ما يمر ببالك من تخيلات، تجول كل عواصم العالم، تدخل كتاب جنيس للأرقام القياسية من عدد الوجوه والأشكال الغريبة التي تراها، وكم هي سريعة جداً الانتقال من بين المشاهد اللا منطقية من الحمى، تنجو من النار المشتعلة في غابات الأمازون، ولا يقدر أن يلتهمك أي تمساح، لكن في لحظة تتعثر بحصى صغيرة وأنت تركض من أي شيء.

في الحمى تصبح نبيا وتصبح زائرا وتصبح مُصلح ساعات وغالباً يظهر لك جني الفانوس السحري ويترجاك أن تطلب أمنيات وحين تبدأ بنطق أمنياتك تفزع من نومك بدون سبب، في الحمى يختلط المادي والمعنوي،

والصغير يكبر والكبير يصغر، والأسد يخرج من جيبك، ولا تقدر على حك أرنبة أنفك، وقدماك لا تقدران على حملك للذهاب إلى الحمام.

تفتح عينيك تجد أباك بالقرب من فراشك، يتكلم معك، جزء من الكلام كأنك سمعته في هلوسات الحمى، والباقي حقيقي حين يخبرك بأن هناك رجل ينتظرك عند باب البيت، قال: أنه صديق قديم لك، ورفض الدخول، لكنه يبدو غريباً ولا يشبه رجال المدينة، ألح أن يقابلك الآن، رغم أني أبلغته أنك نائم لأنك عملت عدة أيام متواصلة وقت القصف في المشفى.

نهضت تاركاً خلفي بقعة كبيرة من العرق على الفراش بشكل خارطة العالم القديمة التي رسمها الإدريسي، فتحت الباب كان أحدهم يقف بعيداً يتحدث بجهاز لاسلكي باللغة الإنجليزية وكان ظهره ناحيتي، فهمت بعض الكلمات، وحين التفت ناحيتي اندهشت مما أرى أنه نسيم الأغا، قفز ناحيتي ليحضنني وأنا مازالت في أثر المفاجأة، حضنته بقوة وقلت: أين أنت يا رجل؟

– أنا موجود، أنت الذي يبحث عني، كلما قابلت أحداً من أصدقائنا يخبرني أن فهمي خالد يبحث عنك، وآخر واحد قابلته مدحت صبري وأصر أن أذهب لك.

– مدحت هو الذي أخبرك بأن تأتي إليّ، يبدو أنه يخطط لشيء ما، معقول نحن في نهاية كتابه.

– أخبرني أنه يكتب كتاباً عن المدينة، وقال إنك تريدني في أمر مهم، أذكر أنه يريد منك موعد اللقاء الكبير.

– سمعتك تحكي باللغة الإنجليزية ماذا تعمل الآن؟

– أعمل مترجماً مع الأجانب الذين يحضرون إلى المدينة كالصحافة والأطباء ومؤسسات حقوق الإنسان.

– تقويم أسنان فضي وكمان لغة إنجليزية

– ماذا تقول يا دكتور فهمي، لماذا تحكي بصوت غير مسموع.

– لا شيء، رغم أنك لم تحب اللغة الإنجليزية كيف قررت أن تتعلمها وتعمل بها.

– بعد أن حصلت على معدلٍ متميزٍ في الثانوية العامة، قررت أن أتخذ قراراً مصيرياً أثار دهشة وذهول الجميع بحجز مقعد في كلية الآداب (قسم اللغة الإنجليزية)، لتنطلق شرارة التحول الكبير في مساري، فالحقيقة أنني

واجهت الكثير من المصاعب في بداية هذا المشوار الشاق الذي سيمتد لأربعِ سنواتٍ؛ فعلينا الآن أن ندرس الروايات والأشعار والمسرحيات والقصص القصيرة بلغة وليم شكسبير، وجون دون وتشارلز ديكنز، وت. س. إليوت، وبنية لغوية معقدة، وأساليب جزلة، وعبارات تتداخل فيها الحروف اللاتينية والانجليزية القديمة بالإنجليزية المعاصرة التي يحمل لواءها أدب القرن العشرين وأدب ما بعد الاستعمار. المهم أنني تجاوزت المنحنيات الصعبة، وعزمت على المسير، وتخرجت بمعدلٍ تراكميٍ متفوقاً على جميع زملائي، ولا تنسَ عزيزي أنا بشحمي ولحمي الحاقد والكاره لتعلم اللغة الإنجليزية لأكثر من أحد عشر عاماً، فكل شيء تغير ودوام الحال من المحال. لكن حين حضر بعض الأجانب لمدرستنا مع الأستاذ حلمي بدأت أشعر أنها لغة يمكنها أن تفتح أبواب العالم لمديتنا يمكنك أن نوصلها بهذه اللغة.

– لماذا لم تسافر وتعمل خارج المدينة هي فرضة أن تتقن اللغة أن تجني المال؟

– في بعض الأحيان يظن الأشخاص أنهم عندما يرحلون عن وطنهم، لدول اخرى سوف يجدون السعادة، والراحة،

ولكن الحقيقة عكس ذلك تماما، فذرة تراب واحدة من أرض الوطن تعادل كنزا كاملا، وحب الوطن مزروع في نفس الإنسان منذ الولادة، لأنه المكان الذي يتمثل به لدى باقي دول العالم، فهو المكان الدافئ.

– كلام منطقي أنا أيضا كان عندي فرصة أن أبقى في روسيا وأعمل هناك لكن رفضت وقررت أن أرجع للمدينة، لا أعلم لماذا لكن لم أجد نفس الدفء والراحة في الأماكن الأخرى. العمل هنا فهو يشبه الشوربة الساخنة، أو الملابس السميكة التي تقدمها الأم لولدها في أيام الشتاء الباردة، والمظلة. نحن من دونها نشبه الوردة من دون رائحة، ونشبه الشجرة من دون جذر، أسوأ شعور أصابني هو العيش بالفراغ في الغربة، لذلك يجب أن نحافظ عليها، ونفديها بكل ما نملك لكي نحميها، ونقدم لها كل الخدمات التي تحتاجها لكي تبقى شامخة ومرفوعة الرأس.

– لكن لم تخبرني لماذا تبحث عني، وما هو موعد اللقاء الكبير؟

– بصراحة أنا كما فهمت من مدحت إنني مجرد بطل في كتابه، لكن علينا أن نحدد الموعد، هل تذكر أول مرة دخلت علينا الصف الدراسي في مدرستنا الإعدادية.

– أذكر كان بعد الدراسة بشهر، لأن جدّي وَجْدي حين جئت من سوريا أنا وأهلي أخبرني أن العام الدراسي قد بدأ، هذا ما أذكره.

– ما هو أخبار أبيك المعتقل، هل عاد.

– نعم عاد لكن ليس بخير يعاني من اضطرابات نفسيه، لكن يوم بعد يوم يتحسن، لكن جدّي وجدي أصبح كبيراً وينتظر الموت.

– يبدأ العام الدراسي عندنا في أول سبتمبر، وأنت جئت بعد شهر، يعني الأول من أكتوبر، جميل أن يكون اللقاء الكبير في أول أكتوبر.

– لماذا هذا الربط، أنا لا أفهم شيء.

– لن تفهم شيء، إلا بعد أن ينهي مدحت الكتاب وتقرؤه سوف تفهم لماذا أخترت هذا التاريخ، لكن يا نسيم مازالت جميلاً وأنيقاً كما أنت، متى رفعت تقويم الأسنان من فمك.

– ظلّ في فمي طويلاً، لكن لم أذكر متى أزلته، سوف أتركك الآن عندي ميعاد مع مصور صحفي يريد أن يلتقط بعض الصور للأماكن المتضررة من القصف، سوف نذهب لنصور المكتبة أيضا، وأنا سوف اكتب تقريراً وأترجمه إلى الإنجليزية وأنشره في المجلات والجرائد

العالمية، وسوف أحضر في أول أكتوبر القادم لنتقابل.
لكن يا صديقي أنت اخترت التاريخ، لكن أين المكان؟
ذكر نسيم كلمة المكان وغاب عن وجهي، وتركني بشعور الغيظ، والتساؤل عن المكان، هل هذه من حركات مدحت في الكتابة، يريد أحداثا كثيرة لكتابه حتى يحدد المكان، كان أفضل له وأقصر الطرق أن يختار الزمان والمكان معاً، لأن المدينة كبيرة وفيها عشرات الأماكن تستحق أن نتقابل فيها، لدي إحساس أنه سيختار عند أول عمارة طويلة، أو عند بئر الفدائية، عند أول تكنة عسكرية، أو عند أول بيت شهيد، عند بوابة المدرسة الزرقاء، عند المسجد القديم، في أحد الشوارع الثمانية، أو داخل مكتبة النادي، معقول عند جدران المقبرة القديمة، في سوق عيادة الوكالة، أو سوق الحلال، على رمال شاطئ البحر...
وقتها انتبهت لإحدى عبارات نسيم عن دراسة اللغة الإنجليزية [فعلينا الآن أن ندرس الروايات والأشعار والمسرحيات والقصص القصيرة بلغة وليم شكسبير، وجون دون وتشارلز ديكنز، وت. س. إليوت، وببنية لغوية معقدة، وأساليب جزلة، وعبارات تتداخل فيها الحروف اللاتينية والإنجليزية القديمة بالإنجليزية المعاصرة التي

يحمل لواءها أدب القرن العشرين وأدب ما بعد الاستعمار]
هذه الجملة تشعر أنها تمثل مدحت صبري لأنه كلما قابلناه كان يذكر أسماء كُتّاب وكتب ويقول ما بعد الاستعمار وقبل ثورة النور، وثورة الزنوج والثورة البلشفية... معقول إن نسيم الأغا مجرد شخصية على ورق من تدبيره، كما أنا مجرد بطل وضعني في مكان ما ومضى.

تمضي الأيام عادية جداً، تفتح باب غرفتك عشرات المرات، وكثيراً من المرات تنسى لماذا خرجت من غرفتك، غرفتي صارت مكدسة بالأوراق البيضاء المدون عليها أسماء أصدقائي القدامى، أمام كل اسم تجد خريطة أين وجدته وما هو الحوار الذي دار بيننا، والمكان الذي تقابلنا به، وحين أنسى باب غرفتي مفتوحاً ويدخل أي أحد من أولاد إخوتي أقفز وأركض خلفه حتى لا يمزق أي ورقة من أوراق هذا البحث الطويل عن الذكريات.

والذي زاد الطين بلة، حين أحضر لي وحيد صافي ألبوم صور كل جزء في المدينة ووجوه الناس وقد علقتها على حبل وبعض ملاقط الغسيل، أصبحت غرفتي (مسرح عبثي) وكل الذي اتمناه أن ينتهي مدحت صبري من

كتابه قبل موسم العيد، لأن أمي تنشط قبله بثلاثة أيام تقوم بقلب البيت رأساً على عقب، وتغير كل شيء في البيت، حتى أبي يهرب وقتها، خوفاً من أمي أن يدخل بحذائه المغبر في أي مكان بعد التنظيف، تكون أمي في حالة لا توصف كأنها في منجم ذهب تكسر الصخر لتخرجه، أيضا كل نساء الشارع في هذه الأيام تشبه أمي في هذه الحالة، تجد كل فراش النوم وأدوات المطبخ والبساطات وغطاءات المساند معلقة على أحبال مربوطة من أول الشارع إلى آخره، والجدران تكون محجوزة للبساط المطرز يدوياً المجهز لغرفة الضيوف.

كل خوفي أن تمرّ الأيام وتدخل أمي غرفتي قبل موسم العيد، وتهم بتنظيفها سوف تحدث مجزرة لكل الذكريات، في الحالة تجد كل الأوراق والصور تنتظر دورها لتحرق تحت طبيخ العدس في فرن الطينة في الحاكورة الخلفية للبيت، كادت أعصابي تنهار من انتظار مدحت وكتابه.

في هذا الوقت انتهى عقدي المؤقت بوظيفة طبيب في عيادة الوكالة، وأنتظر تجديد العقد، في بداية عملنا لابد أن تمرّ في حالات تمديد لفترة، حتى تحصل على الوظيفة بشكل كامل وتصبح موظفاً رسمياً، وتتبع سياسية العمل.

منها ممنوع الحكي أو الاقتراب من السياسة ولا المقاومة المسلحة، لكن بكل صدق لو قطعوا رؤوسنا سوف نحكي بالسياسة ونعمل بأي شكل من الأشكال في المقاومة، جلست في بيتي للمطالعة في بعض كتب الطب وخاصة الجراحة العامة، لأن اختبار التوظيف قريب جداً، وهذا الاختبار لا يقتصر على تخصص الطب ولكن كل من في المدينة من مدرسين ونجارين وحدادين وسواقين وفي النظافة والحراسة الليلة ومهنة تسليم الكوبونات (باحث اجتماعي) نساء ورجال عليهم انتظار هذه الفرصة بشغف والحصول على وظيفة في وكالة الغوث للاجئين، لأن راتبها يشبه تقويم الأسنان بل تقوم كل أيام الفقر والجوع والعوز التي كنت تعاني فيها، راتبها الشهري بالدولار بالعملة التي دفعها نسيم وجدّه وجدي ثمن التقويم. طرق باب بيتنا بعنف، وحين فتحت أمي الباب دخلت جارتنا أم وسيم الأرملة تحمل طفلها فقد جرح قدمه من لعب الكرة لأنه يلعب حافياً، أخرجت أدواتي الطبية وبدأت أعالج الطفل، أمي سألت أم وسيم: ماذا فعلتم بابنة زوجك؟ [أم وسيم كانت مع زوجها في ليبيا يعمل هناك مزارعاً بعد أن أنهي تعليمه في هندسة الزراعة في مصر

ومن ثم سافر، يوجد في ليبيا عمل كثير، لكنه مات في حادت طرق على الطريق العام ليلا وهو عائد من العمل وظلت جثثه ملقاه على الإسفلت ومرت عليها السيارات طوال الليل حتى سحقت تماماً أصبحت بلا ملامح، ولأن إقامتهم في مصر كانت منتهية جاءت إلى المدينة هي وصغارها، لكن بعد مده سمعنا صراخ عند بيتها، وعلمنا أن زوجها كان له زوجه أخرى مصرية أيضا ماتت وجاءت ابنته لتعيش معهم، وحدث مشكلة كبيرة لرفض أم وسيم فكرة خيانة زوجها، على حسب اعتقاداتها]

طبعاً ردت أم وسيم على أمي: تزوجت وسكنت بعيداً عنا في مدينة أخرى، لكن أولادي يزورونها كل فترة وهي بخير، لكن أنا لن أنسي فعلة أبو وسيم كيف أضحى معه وأذهب إلى ليبيا وأشتاق لعائلتي طوال الفترة وأصبر لأجله لكنه كان متزوجاً عليّ، لكن أنا كلي غضب كيف ومتى وأين كان يذهب لها، وهو دائما معي، هذا سرّ لابد أن أكتشفه يوما ما.

كان طفلها بحاجة لقطب الجرح وطبعاً عملت اللازم له ووضعت المطهر والأدوية، وطلبت منه: عدم اللعب لمدة عشرة أيام، وعدم اللعب مرة أخرى حافياً.

ردت أم وسيم: موضوع العشرة أيام مقدور عليها، أما موضوع الحافي هذه مشكلة لا نقدر أن نشتري أحذية كل شهر، لأن الكرة تهري كل الأحذية، وحملت طفلها وغادرت المكان، لكن عادت أنا لا املك مصاري لأدفع ثمن علاجك.

نهضت أمي: أنت مجنونة نحن جيران، والله لو تعيدي هذا الكلام سوف أزعل منك، إحنا علمناه دكتور علشان يساعد الجيران، وبعدين قولي على لساني كل واحد بدو أي خدمة من الدكتور هو جاهز بالمجان، ولا كيف يا دكتور فهمي يا ابني، (كلامك صحيح يا أمي).

شعرت بالسعادة من كلام أمي، ليس لأجلي لكن لأجل أمي أنها سوف تقدم خدمات مجانية لجيرانها ما هذا الحب!

في كل يوم أو يومين يأتي أطفال ورجال الشارع والجيران لطلب العلاج لبعض الأمراض السريعة مثل رمد البلح، الجروح والحروق وتنظيف الأذن، ووجع الظهر، وقشرة الرأس، والحكة في الرقبة، كنت أعالجهم وأنا سعيد وأمي تقف على رأسي تفتح حوارات وقصص حدثت مع كل حالة تأتي لي، العجيب كيف تعرف هذه الكمية الكبيرة

من القصص ولا كتاب ألف ليلة وليلة، وعندها المقدرة على حفظ كل الأجيال منذ قدومنا إلى المدينة حتى الآن، كانت فترة جميلة عشتها وأنا أنتظر أن يحررني مدحت كبطل من كتابه.

هناك لحظات تحدث في حياتك تشبه المنبه التي تضعه بالقرب من رأسه ليساعدك على التزام المواعيد، وهذه اللحظات تنتشر حولك مثلاً حين ترى الطعام تشعر أنك جوعان، وحيت تشاهد بائع النمورة يدور في الشوارع ينادي عليها، تشعر أنك مصاب بنقص السكر، وحين تسمع صوت الأفراح بالقرب من بيتك، أنت لا تنتبه وقتها لكن أمك تركض لك وتقول لك: بنت الجيران تزوجت، لو كنت جاهز لخطبتها لك، تتعمد عدم الانتباه، لكن هذه اللحظة التي حدث معي كانت منبه قوي رجني أني نسيت شيئاً مهماً في حياتي، حين دخلت غرفة أمي وأبي وجدتهما يلبسان ملابس جديدة وأمي ترتدي ثوباً مطرزاً وشال أبيض ووضعت كحلاً من مكحلتها النحاسية، وأبي ارتدي بدلة راقية وحطة بيضاء وعقال، صار قلبي يرتجف، خفت أنهما سيذهبان لبيت إحدى بنات الجيران ليخطبا لي، لكن تجرأت وسألتهم: أين تذهبان بهذه

الملابس، رد أبي سوف نذهب عند الساحة مقابل مكتبة النادي لمعرض فني كبير ويوجد به غناء ودبكة وسيوزعون كتاب عن مدينتنا من تأليف الشاب مدحت صبري، أكملت الحديث: هذا الشاب شاطر دائماً كان يجمع أطفال الشارع في أي مكان ويدرس لهم دروسهم ويحكي لهم قصص، هل تعرفه يا أمي، رد الدكتور في سره هو يعرفني جيدا، هذه اللحظة عرفت أن النهاية بدأت تظهر في وجهي من الطرقات المظلمة لتضيء ما حولها.
وصلت إلى المكان برفقة أمي وأبي وكان كل رجال ونساء وأطفال المدينة في المكان، وكانت مجموعة من اللوحات الفنية المرسومة لكل تفاصيل المدينة من شوارع وأسواق وشخصيات والحضور صاروا يتجولون ويتعرفون على كل معلومات الصور، وكان يرفقهم وحيد صافي مع كل لوحة يشرح لهم، كانت السعادة والضحك والاندهاش في كل المكان، تقدمت ناحية وحيد وطرحت التحية عليه، ابتسم وهزّ رأسه.
كان بجانب المعرض مسرح مصنوع من الخشب، صعد شابان يلبسان ملابس الحكواتي وصارا يحكيان قصص ويغنيان الأول حكي قصة (طنجر) وكان الأطفال

يحفظونها وصاروا يرددوا (طنجر، طنجر يا إمي جبت الدحة في تمي)

والشاب الثاني غنى أغنية [فولتي يا فولتي يا رادة جوعتي] وصار كل الحضور يغني معهم.

شاركت الحضور بالغناء وبعد ذلك أغنية يا ظريف الطول صدحت في المكان، وأنا أصفق وأرقص معهم وجدت نسيم الأغا يشاركنا الرقص فحضنته وأخبرته: هل أنت حقيقي أم بطل من أبطال الكتاب؟

وبعد ذلك دهبنا إلى جزء فيه كتب كبيرة وكان غلاف الكتاب صورة من صور المدينة وكان عنوانه (تقويم أسنان فضي) وصار مدحت يهدي الكتاب لبعض الحضور، أبي حصل على نسخة وابتسم في وجهي وقال: قلبت الكتاب فوجدت اسمك في الكتاب، صحيح هل تعرف مدحت صبري؟.

في لحظات تتحكم الهندسة في حركة الناس دون قصد، دائما الحياة الموقتة تأخذ شكل المربع أنت تنام في غرفة مربعة الشكل وتذهب لبيت جيرانك مربع الشكل، حتى حين تلعب الكرة في ملعب مربع الشكل والكثير، أما المثلث نعيشه وقت الحزن لو لاحظت ذلك يكون الحزين

وأنت والحزن نفسه تشكلون شكل مثلث، فقط عليك أن تدقق في لحظات الحزن، أما في حين تريد أن تكرم الحياة أحدا تجعل حوله دائرة وهذا ما حدث مع مدحت صبري، ووحيد صافي تحركوا كثيرا بين الحضور في الحفلة، لكن في لحظات صارا في منتصف الدائرة ونحن حولهم أنا الدكتور خالد فهمي، وفواز أبو كريك بجسمه الكبير، وتامر الأبيض وبهاء فضل بالزي الشرطي الكحلي المهيب، وهديل نوح وطفلتها ورقية بدر وحنان راغب ونجوى رستم كأنهن شاركنا الدائرة وبيوض الشجاع ونشأت الوادي المقلاع، ورائد حسين الذي جاء رغم وضعه الأمني، والجميلة سوزان فرج، عماد طربي برائحة البحر، ورشاد ماضي يحمل ورق أبيض، وراضي حمد بجلبابه الأبيض وذقنه الطويلة، وأيضا كان نسيم الأغا، وفي لحظة انضم إلى الدائرة كلاً من سليم شوكة وأنور التنح بعد ما خلعا ملابس المسرح... وصرنا ندور حول مدحت ووحيد كأننا نريد أن نقدم له الشكر أنهم فكروا وجعلونا أبطال للذكرى.

عرفت وقتها أن سعادتنا في هذه المدينة لا تكمن في الأشياء، ولكن في أنفسنا! هذه المدينة مثل المرآة، سوف

تبتسم لك إذا ابتسمت، كلنا حاولنا أن نتغير فقط استغرق الأمر دقيقة واحدة لتغيير يوم سيء في يوم جيد، أخذنا قفزة واحدة من إيماننا بأنفسنا إلى أنفسنا، وفي أنفسنا تعلمنا أنه يمكن أن تسطع ابتسامتنا لتدفع الغيوم السوداء بعيدًا لنخطو خطوتنا بنور كامل.

كل واحد فينا أخذ نسخته وغادر المكان، أما أنا فتحت أخر صفحات في الكتاب لأن أول صفحاته كنت البطل فيها، وبعد أن قرأتها شعرت أن صديقي مدحت يميل إلى إغلاق النهايات.

فقد كتب سوف تأخذنا الحياة إلى أبعد مما نتصور رغم أن المكان ضيق، كل واحد في هذا الكتاب حين اختار طريقه اختار حياته وموته معا، ولم نكن بالشجاعة الكاملة أن نضيف شيئاً في هذا الروتين الذي نعيشه في المدينة، لأننا مصابون بحمى العودة إلى ما ترك أجدادنا خلفهم من مدن وشوارع وأشجار وحياة لم نرها لكن أُخبرنا عنها فأحببناها وعشقنا العودة لها.

رائد حسن كان أسرع واحد فينا ليموت أولنا ونحمله على أكتافنا حين أقدمت سيارة للجنود وهم يلبسون ملابس تشبه ملابسنا، وأطلقوا عشرات الرصاصات لتسكن في جسده

ويموت في الحال وقتها جئنا نودعه وهو ملقى على النعش وسط المدينة.

تامر الأبيض وبهاء فضل حصل كل واحد منهم على سيارة ورُتب جديدة في العمل في الشرطة، أما نشأت الوادي ترك حبه للسلاح وتجارته وفتح سوبر ماركت كبير وصار يهتم بالحسابات والبضائع، وبيوض اختفى وقيل إنه ذهب لمصر ولم يعد لأنه كان يذهب عبر الحدود بطريقه غير شرعية.

رامي عبدو وسليم التنح كونا فريق مسرحي كبير من الأطفال وصاروا يخرجوا مسرحيات وكل الأطفال تحبهم، راضي حمد اعتقل في أفغانستان ولم نعلم الكثير عنه، سوزان فرج الجميلة مازالت جميلة وكل النساء يذهبن إليها ليصبحن أكثر جمالاً، ونسيم الأغا فتح مؤسسة لتعليم اللغة الإنجليزية وصار الأجانب ومحبو اللغة يتردون حوله، ووحيد صافي سافر إلى دول كثير يحمل لوحاته وفنه إلى العالم، أما مدحت صبري فلم يكن محظوظاً بالحياة فمازال يكتب ويقرأ ويعمل في أي شيء ليحافظ على حبه وشغفه.